

شرح كتاب

الإعتصام بالكتاب والسنة

من صحيح البخاري

تقديم

أناحيد بن عبد السمير

غفر الله لها ولوالديها

١٤٣٦ من الهجرة النبوية الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة **(عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)** تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

<https://anaheedblogger.blogspot.com>

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.
- هذه التفاريغ من عمل الطالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزّوجلّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله.
- والله الموفق لما يحبّ ويرضى.

فهرس الجزء الأول

٣ اللقاء الأول
٣ مقدمة الكتاب
٣ بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ"
٣١ اللقاء الثاني
٣١ تابع بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ: "بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ"
٣١ بَابُ الْإِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ
٦٤ اللقاء الثالث
٦٤ تابع بَابُ الْإِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ
٩٦ اللقاء الرابع
٩٦ تابع بَابُ الْإِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ
١٢٩ اللقاء الخامس
١٢٩ بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكْلُفِ مَا لَا يَعْنيهِ

اللقاء الأول

مقدمة الكتاب

بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ"

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله -عزَّ وجلَّ- حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا؛ أن جمعنا في هذا المكان المبارك، في روضة من رياض الجنة، نسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يجعل مدخلنا للعلم مدخل صدق، ومخرجنا مخرج صدق، وأن يجعل للعلم على قلوبنا سلطانًا نصيرًا، اللهم آمين.

ستكون دورتنا قراءة في **كتاب الاعتصام من صحيح البخاري**. هذا الذي سنقرؤه هو أحاديث للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جمعها البخاري -رحمه الله- في صحيحه، تحت كتاب سماه **كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة**.

وأمر الاعتصام بالكتاب والسنة من الأمور التي نحتاج مناقشتها دائمًا، ثم تأتي أسباب تجعل مناقشة هذا الأمر في وقت أهم من وقت، فنبتدئ أولاً بمعنى كلمة الاعتصام، ومن خلالها سيتبين أهمية هذا الموضوع اليوم:

ما معني كلمة الاعتصام؟

كأنها منتزعة من قول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾^(١)، فالله أمرنا بالاعتصام بحبله؛ البخاري قال: "كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة". كأنه فسّر لنا حبل الله بالكتاب والسنة.

والاعتصام معناه: التمسك. والمُعْتَصِم دائماً يكون في حال خوف ورهبة من أن ينفلت مما اعتصم به. الآن تصوّر الكتاب والسنة مثل الحبل، والمعتصم شخص يفرق في البحر، فيتمسك بالحبل، في الآية: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ ما هو حبل الله؟ الكتاب والسنة، وهذا الحبل مُدّ لعبد يعلم أنه في بحر لحيّ، ومُدّ له بحبل، والمطلوب منه: أن يتمسك به لينجو.

إذا: **الحبل** هو: الكتاب والسنة. **والحال**: الخوف. **والمعتصم** يتمسك تمسك من يخاف أن يغرق. وحينما نتصور هذه الحال التي نعيشها من الفتن، سنفهم جيداً معنى الاعتصام، فإنك إذا التفت يميناً وشمالاً ستري كيف شرد الناس إلى الدنيا وآخرون خرجوا من الدين إلى الإلحاد وآخرون إلى المخدرات والإرهاب وغيرهم اتجهوا للفرق والضياع! في مثل هذا البحر اللحيّ الذي يعيشه الخلق، أولاً لا بد أن يشعروا بالخوف، وعدم الشعور بالخوف يسبب أن تزلّ قدم الإنسان وهو لا يشعر، ويظن

(١) آل عمران: ١٠٣.

أنه يُحسن صنعًا؛ لأن كل من ترك الاعتصام، ظن في نفسه أنه يُحسن صنعًا؛ ولذا الله -عزَّ وجلَّ- قال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾^(١)

و(إِنَّمَا): أداة حصر، كأنهم هم فقط المصلحون.

و(نحن) ضمير منفصل يدل على التخصيص، يعني هؤلاء المنافقون الذين حكم الله عليهم أنهم منافقون، هم يرون أنفسهم أنهم هم فقط المصلحون! فجمع لهم بين الضلال وبين أنهم يظنون أنهم يُحسنون صنعًا؛ ولذا في مثل هذه الأحوال لا تظن أن الناس الغارقين يعلمون أنهم غارقون، لا، بل يظنون أنهم يحسنون صنعًا! ما هو المقياس الذي يجعلني أعرف هل أنا ناجٍ، أم أي ممن لم يحسن صنعًا؟ أنت ستقول: "الكتاب والسنة" غالب هؤلاء المفترقون يقولون: "الكتاب والسنة!" لكننا نحتاج مع الكتاب والسنة إلى الاعتصام، والاعتصام هو: التمسك. وسنصف معنى التمسك من خلال النصوص التي أوردها البخاري -رحمه الله-، فالكتاب هنا يصف كيفية الاعتصام، ماذا يعتقد الإنسان ليكون معتصمًا، لكن قبل ذلك سنفهم عدة أمور:

الأمر الأول: أن الخلق غرقي، والله مدّ لهم حبل للنجاة وهو الكتاب والسنة، وقال لهم: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾.

(١) البقرة: ١١.

الأمر الثاني: المعتصم صفته أنه خائف.

الأمر الثالث: المعتصم لا يعتصم إلا وهو في غاية الاستغاثة بربه، هو بنفسه لا يستطيع أن يعتصم ولا يُدلّ إلى الطريق ولا يعرفه ولا يميّزه إلا أن يستغيث، وصورة الاستغاثة هي الكلمة التي نردها في الفاتحة، بعد أن نُثني على ربنا ونقول:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فنحمد الله على كمال صفاته وأفعاله عزّ وجلّ.

ونقول في تسميته: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

ونصفه بأنه ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

ونعترف ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ثم بعد كل هذه المقدمة نطلب: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

فبعد يخاف ويستغيث فلا بد أن ينجو ولا يخذله ربه، ومن النجاة أن يُعلّمه الله الصراط المستقيم.

فالإيمان في القلب، الذي يأتي من الكتاب والسنة هو طريق الإنسان للنجاة، يعني يقرأ الكتاب والسنة ويفهمهما، ثم يأتي وراء ذلك أنه سيعتصم بهما ثم ينجو، لكن حينما نفتش في نفوسنا، نجد المحافظة على الإيمان واعتباره كنزاً، والخوف على القلب من دخول الشهوات والشهوات غير موجود في عامة الناس -إلا من رحم ربي-

وأبسط شيء ما مرت به الأمة في الأيام الماضية، بسهولة نفتح أي رابط يُرسل لنا، فنرى أي صور أو مقالات من أصحاب المناهج المختلفة ونحسب أننا لن نتأثر ولن يتغير إيماننا حينما نقرأ كلامهم! وهذه أكلوبة من الشيطان، ابذل جهدك أن تحافظ على إيمانك، ولا تجعله عرضة للشبهات. هذا إذا كنا نتكلم عن الشبهات، أما إذا كنا نتكلم عن الصور والمناظر التي نراها من الأمور التي تتصل بالدنيا والفسق والفجور، فكل هذا يأكل إيمانك، فتصور أن العين تُدخل إلى القلب ما يأكل الإيمان، والأذن تُدخل إلى القلب ما يأكل الإيمان، فيقرأ الإنسان شبهات، أو يسمع شبهات، أو يقرأ أخبارًا، تُدخل على قلبه الشبهات، فتأكل إيمانه، ثم يفرغ القلب من الإيمان ثم يُبتلى العبد بشبهة تهلكه، ثم يذهب بعيدًا! ومن أجل أن نزيد على أنفسنا التحذير، نقول: "لا بد أن نعرف أن كثيرًا ممن تطرّف في بُغضه للدين ودخل للإلحاد، كان في مبدأ حاله حافظًا للقرآن، جالسًا في مجالس الذكر! وهذا يجعلنا نسأل سؤالًا مهمًا:

كيف يمكن للقلب الذي دخل فيه القرآن أن تدخل فيه للشبهه؟ بأحد

سببين:

السبب الأول: قاله رسول الله: «**يقرأون القرآن لا يُجاوزُ تراقيهم**»^(١)، ما

جاوز حناجرهم، ما دخل إلى قلوبهم، فقلوبهم فارغة.

(١) أخرجه ابن ماجه (١٦٨).

السبب الثاني: أنه قد يكون دخل قلبه الإيمان فعلاً، لكنه عرض الإيمان لما ينقصه، حتى انتهى الإيمان من قلبه!
ولذلك الله -عز وجل- لما وصف المنافقون قال عنهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(١).
وفي سورة النساء قال عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدادوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾.
إذا هم آمنوا لكن عرضوا إيمانهم للشبهات أو الشهوات إلى أن فرغ قلبهم من الإيمان، أو ما حافظوا على إيمانهم بزيادته.
وهؤلاء الذين ما حافظوا على إيمانهم ولا زادوا إيمانهم، ضرب الله لهم مثلاً في مطلع سورة البقرة، قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾
فهو استوقد ناراً فأنارت له -هذا الإيمان-، لكنه بعدما أنارت له ورأى كل الحقائق، ما وضع لها حطباً ليحافظ عليها؛ لذلك انطفأت! ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(٢).
المقصد: أن المعتصم لا بد أن يكون خائفاً، فلا يوجد معتصم، يتمسك بالحبل، إلا لو كان يرى البحر اللجج من تحته. لكن بدون خوف

(١) المنافقون: ٣.

(٢) البقرة: ١٧.

لن يعتني، ولسان حاله يقول: "لا تشددوا علينا!" لكن الذي يرى أنه سيغرق؛ سيعتصم، ويتمسك.

ودائمًا تجد من يقولون: "آباؤنا وأمهاتنا عاشوا حياتهم وما كانوا يعرفون كثيرًا مما نعرفه، ومع ذلك عاشوا ذاكرين لله وأحسن لهم الخواتيم".

نقول: صحيح، لكن لأنهم حفظوا من جهتين:

الجهة الأولى: أن سيل الشبهات كان محجورًا عنهم، ما عرفوا الفرق ولا غيرها.

الجهة الثانية: ربّاهم الله فعرفوه حق معرفته، لم يكن لديهم راتب شهري ينتظرونه ولا أرصدة في البنوك يتكلمون عليها ولا رفاهيات مثلنا، لكن كان عندهم استغاثة وطلب، يطلبونه فيعطيه، يسألونه فلا يردهم، يطلبون ستره فيسترهم، يطلبون جبره فيجبرهم، يستطعمونه فيطعمهم. عرفوه من أفعاله، فكان إيمانهم قويًا. لكن اليوم انظروا لحالنا وحال أبنائنا! إذا احتجنا مالا، فكرنا في أرصدتنا أول الشهر، وإذا احتجنا لستر، دبرنا لأنفسنا! وإذا وإذا...! اعتمدنا على أنفسنا في نهاية كل أمر!

فالفرق شاسع بين أسباب ضعف الإيمان عندنا وأسباب قوة الإيمان عندهم.

فإن الله حفظهم بما هيأ لهم ونحن ابتلينا بأسباب كثيرة يمكن أن تُفسد علينا إيماننا! لكن لا بد أن نشهد لله بالحق، أنه كذلك هناك أسباب كثيرة تحفظ علينا إيماننا.

فاليوم -بفضل الله ومنته- تصل دروس العلم للناس في آخر الدنيا، مهما كانت البلد التي هم فيها، لكن يصلهم الحقائق، والمهتدي من يهديه الله.

بذلك خرجنا بنتيجة مهمة وهي أن: **الاعتصام سيكون حالاً للعبد إن خاف.**

الخائف على إيمانه هو من سيعتصم، وحينما يخاف على إيمانه سيبذل جهده ويستغيث بربه ويتعلم حتى يصل إلى الحق، وهذا الذي يراد.

اتفقنا الآن على أن الاعتصام هو التمسك بالكتاب والسنة، الذي هو في النهاية حبل الله.

قدم البخاري -رحمه الله- بمقدمة في هذا الكتاب فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة

• حدثنا الحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مِسْعَرٍ وَغَيْرِهِ، عَنْ قَيْسِ بْنِ

مُسْلِمٍ، عَنْ طَارِقِ بْنِ شَهَابٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ لِعُمَرَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ أَنَّ عَلَيْنَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي لَأَعْلَمُ أَيَّ يَوْمٍ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، نَزَلَتْ يَوْمَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ. سَمِعَ سُفْيَانُ مِنْ مِسْعَرٍ، وَمِسْعَرٌ قَيْسًا، وَقَيْسٌ طَارِقًا.

← أورد البخاري -رحمه الله- هذه المقدمة تحت الكتاب، هو

من طريقته أن يأتي بالكتاب ويأتي بعده بباب تحته، لكن هنا في كتاب الاعتصام قال: (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة) ثم أورد مجموعة آثار، كأنه يُجيب سؤال: لماذا سنعتصم بالكتاب والسنة؟

فهذا حديث أورده البخاري حصل بين رجل يهودي وعمر -رضي الله عنه-، الرجل اليهودي قال لعمر: (لَوْ أَنَّ عَلَيْنَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا)

انظر لأفعال الله -عز وجل-:

الأول: (أَكْمَلْتُ) أكمل الله الدين.

الثاني: (أَتَمَّمْتُ) أتمم الله النعمة.

الثالث: (رَضِيتُ) لكم الإسلام دينًا.

ما المراد بقول اليهودي: (لَا تَتَّخِذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا)؟

يفرحون كل سنة في هذا الوقت بأفعال الله لهم بأن الله أكمل لهم الدين وأتمم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام دينًا، يفرحون بعطية الله، فيشعرون بالعطية ويفرحون بها. وهناك فرق شاسع بين من يشعر بأن الدين هو المهم، وأنه سيفرح به، لدرجة أن يتخذوا مثل هذا اليوم عيدًا، وبين غيره.

ردّ عليه عمر قائلًا: (إِنِّي لَأَعْلَمُ أَيَّ يَوْمٍ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، نَزَلَتْ يَوْمَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ).

كأنه يقول: "قد اتخذناها عيدًا!"، فإن يوم عرفة إذا كان للحجاج ففي مسائه سيكون العيد ولغير الحجاج فهو العيد يبتدئ منه التكبير المقيد وتبتدئ منه شعائر العيد؛ وليس فقط يوم عرفة بل يوم الجمعة، فاجتمع فيه عيد الأسبوع وعيد السنّة. فكأنه يقول: "نحن أحق منكم بالفرح به." وهذا يُحقق قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(١)

(١) يونس: ٥٨.

المعنى: أن الناس عادة يفرحون بما يجمعون، وكلّما زاد نصيبهم من الدنيا زاد فرحهم، وأهل الاعتصام، المعتصمون بالكتاب والسنة، كلّما زاد فهمهم لكتاب الله ولدينه، كلّما زاد فرحهم.

والمعنى: أنك تعتصم بالكتاب والسنة؛ لأن الله أكمل لك فيه الدين وأتم عليك فيه النعمة ورضي لك هذا الدين. وتصور أنه رضي لك الإسلام دينًا وأنت تتبع ما رضي الله، فستكون ممن رضي الله عنهم.

إذا نحن نتمسك بالكتاب والسنة، ونثق فيهما ونطرح أي أمر غيرهما؛ لأن الله قال فيهما: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

وليستبين الأمر أكثر سنرى حال الناس اليوم مع إكمال الله الدين وإتمامه والرضا به، ونرى بأبسط مثال ما يتداوله الناس من مسائل تتصل بإعمار النفس وتنميتها، وكما يعبرون (وإدارتها). هذه النفس التي خلقها الله وأتى الخبر عنها في القرآن وأتى في القرآن الخبر بأن الله أمرنا بتزكيتها، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(١). يعني القرآن نزل من أجل تزكو هذه النفس، وتزكو بمعنى: (تنمو) ومن أجل أن تسير في الصراط

(١) الشمس: ٧ - ١٠.

المستقيم وتبتعد عن الأمراض والغم والههم والاكتئاب. وهذا الذي نزل من عند رب العالمين، الله أكمله، الله أتمّه، رضيه.

فهو - سبحانه وتعالى - خلق النفس وأنزل هذا المنهج الذي تزكو به النفس. الآن كثير من المسلمين -إلا من رحم ربي- حينما يتكلمون عن التنمية البشرية وتطوير الذات، أو أي كلمة من هذه المعاني...من أين يستوردونه؟ من مناهج وأطروحات تعرفون مصادرها! ويتركون الكتاب الذي قد أكمله الله وأتمه ورضيه!

وهؤلاء الذين يأخذون منهم، وصفهم الله في القرآن بأنهم عُي وأيضًا شر البرية.

نبدأ بوصف (عُي):

تصور أنهم في حال عُي، لا يعرفون الحقائق، لا حقائق النفوس ولا منهج تزكية هذه النفوس! ثم تأتي أنت البصير الذي معك الكتاب والسنة وتعرف هذه النفس وتعرف طباعها وتعرف كيف خلقها وتعرف من أين أتت وإلى أين المصير وماذا يجب عليك أن تفعل، ثم تُسلم قيادتك لواحد أعى! وهذا لا يقبله عقل! أن بصير يعرف الحقائق، يسلم نفسه لأعى والله قد وصفهم أنهم عُي.

نأتي لوصف (شر البرية):

تصور خير البرية الذين يقرؤون القرآن على ألسنتهم ويركعون ويسجدون لله، ويعبدون ويستغيثون ووقتما يحتاجون يلجؤون، والله عندهم صمدهم، ويكررون سورة الإخلاص، وكل مرة يعترفون بأنه الأحد والصمد، ثم يأتي هؤلاء الموحدين، خير البرية ويأخذون من شر البرية أفكارًا تزكي النفوس! فكيف تكون من خير البرية وتأخذ من شر البرية، ثم تنتظر أبناء من خير البرية؟! أكيد سيكونون شر البرية. هذا لا يقبله عقل، ونحن لا نتكلم عن أخذ ما يتصل بالدنيا وإعمارها مثل السيارة والطائرة، بل نحن نتكلم عن إعمار النفس التي أتى القرآن لتزكيها، وقد قال رسول الله: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»^(١). فالدنيا ليست موضوعنا أبداً، نحن موضوعنا هذه النفس التي تزكو، ثم تسمع من يقول: "الحكمة ضالة المؤمن" نقول: صحيح، لكننا ما ضللت علينا الحكمة لنبحث عنها في الصين ولا في الغرب! ما ضاعت، نحن الحكمة بين يدينا، والمفترض أن نقود الناس لهذه الحكمة، خصوصاً أن ما سنعتصم به الله أكمله وأتمه ورضيّه. فكيف أتركه وأذهب شرقاً وغرباً لأشحد مناهج لتزكية النفس!؟

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٠).

الشاهد: نعتصم بالكتاب والسنة ونحن متيقنون من أن هذا الكتاب والسنة أكملهم الله، وأتمهم الله ورضيهم الله، فنحن في هذه الحال نكون قد أنعم علينا بأن نكون من أهل هذا المنهج؛ لأنه المنهج الكامل، والمنهج التام، والمنهج الذي رضي به الله.

كان هذا النص الأول ودلالته، **الله تعالى منّ على الخلق بإكمال الدين وإتمام النعمة ورضي الإسلام دينًا، فمن أراد العز والنجاة والوصول للخير وصلاح الفكر وطمأنينة النفس، فليرض بما رضي به الله، فليرض بالمنهج الذي أكمله وأتمه ورضيه الله.**

ننتقل إلى النص الثاني:

• حدثنا يحيى بن بكير، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنِي أَنَّهُ سَمِعَ عُمَرَ الْغَدَّ حِينَ بَايَعَ الْمُسْلِمُونَ أَبَا بَكْرٍ، وَاسْتَوَى عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تَشَهَّدَ قَبْلَ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: **أَمَّا بَعْدُ، فَاخْتَارَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الَّذِي عِنْدَهُ عَلَى الَّذِي عِنْدَكُمْ، وَهَذَا الْكِتَابُ الَّذِي هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَكُمْ، فَخُذُوا بِهِ تَهْتَدُوا، وَإِنَّمَا هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ.**

← إذا لا زلنا نبحث في الاعتصام ونقول: لماذا نعتصم

بالكتاب والسنة؟

نقل البخاري -رحمه الله- عن أنس -رضي الله عنه- أنه سمع عُمر وقتما بايع المسلمون أبا بكر، بعد موت النبي -صلى الله عليه وسلم-، واستوى على منبر رسول الله، فتشهد قبل أبي بكر فقال:

(أَمَّا بَعْدُ، فَاخْتَارَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الَّذِي عِنْدَهُ عَلَى الَّذِي عِنْدَكُمْ) يعني: الجنة ونعيمها، وجوار رب العالمين.
(وَهَذَا الْكِتَابُ الَّذِي هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَكُمْ) هنا الشاهد.

(فَخُذُوا بِهِ تَهْتَدُوا، وَإِنَّمَا هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ.) إذا النبي -صلى الله عليه وسلم- بشخصه قد مات، لكن هديه باقٍ إلى قيام الساعة. بأي شيء اهتدى -صلى الله عليه وسلم-؟ يقول: (وَهَذَا الْكِتَابُ الَّذِي هَدَى اللَّهُ بِهِ رَسُولَكُمْ). أي أن الذي سيعتصم بالكتاب والسنة سيهتدي كهداية النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويكون على طريقه.

لذلك قال: (فَخُذُوا بِهِ تَهْتَدُوا). هذا الكتاب هدى الله به الرسول، نحن سنأخذ به.

ولاحظ (إنما) للحصر، يعني هذا الذي هُدي به الرسول، لا مناهج أخرى، كتاب الله الذي اهتدى به الرسول فخذوا كتاب الله الذي اهتدى به الرسول، وهدي الرسول -صلى الله عليه وسلم-؛ لأن النبي اهتدى بالكتاب.

النتيجة: سنأخذ الكتاب والسنة؛ لأن الرسول لم يهتدِ إلى ربه إلا بالكتاب، فمن أراد الهداية، يفعل مثل النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

ننتقل إلى النص الثالث:

• حدثنا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا وَهَيْبٌ، عَنْ خَالِدٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ضَمَّنِي إِلَيْهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَقَالَ: «اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْكِتَابَ».

← هنا ينقل البخاري -رحمه الله- حدثًا حصل بين ابن عباس والنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

مات النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وابن عباس لم يناهز الحُلُم، يعني عمره لم يتجاوز ١٢ عامًا، وهو صغير حصل حدث بينه وبين النبي، دلَّ على نباهة ابن عباس؛ فضمَّه النبي وقال: (اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْكِتَابَ).

هناك فوائد كثيرة لهذا الحديث تحتاج إلى وقفة، ومنها أنك بمجرد أن تنتبه لنباهة أحد، مباشرة يكون جهدك معه أن يتعلَّم الكتاب؛ لأنَّ تعلُّم الكتاب يحتاج أن تكون نبهًا وعندك قدرات. في مقابل أننا نشعر أن تدريس القرآن والسنة يسير والعلوم والرياضيات، هي التي تحتاج إلى جهد وذكاء! وهذه كلها فرضيات الخلق وكلامهم، وهذا كلام الله الذي يحتاج إلى صفاء من جهة القلب، وإلى صدق من جهة النيَّة. على كل حال هذه بلوى عظيمة، أسأل الله أن يكشف عن المسلمين ما بهم!

الشاهد من الحديث هنا في كتاب الاعتصام: أن النبي قال: (اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْكِتَابَ). وهذا دليل على أمرين في الاعتصام:

الأمر الأول: أن المحبوب الذي يراد له الخير، يُدعى له بأن يتعلم؛ لأنه يُتوقع أن وراء العلم يأتي الاعتصام. فالنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رأى فيه نباهة، وأيضًا ابن عباس له مكانة عند النبي.

الأمر الثاني: حينما نرى ابن عباس وسيرته، ماذا يكون معنى تعلّمه للكتاب؟ بماذا اشتهر ابن عباس؟ التأويل يعني تفسير القرآن وفهمه ولا يكون هذا إلا بالمرور على لفظه، معناه أن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- دعا لابن عباس أن يتعلم الكتاب، يعني يتعلم لفظه ويتعلم معناه، وهذا معنى دعاء النبي له.

وهذا يبين لنا سبب أن كثيرًا ممن تعلموا لفظ الكتاب لم يحصل لهم الاعتصام ولا النجاة، قد يكون حافظًا لكتاب الله ويضللّ، يكون على منهج مخالف، بل من المستشرقين من يحفظون الكتاب!

فهل تعلّم الكتاب، يُقصد به حفظ الكتاب؟

لا، بل معناه أن يُجمع بين دراسة لفظه ودراسة معناه. لما استشهد البخاري -رحمه الله- بالحديث هنا، كأنه يقول: كيف يعتصم الناس؟ يتعلمون.

انظر لابن عباس وقد اشتهر بالتفسير، فمعنى ذلك: استجابة الله لدعاء نبيّه، بأن الله علّمه القرآن لفظاً وعلّمه معنىً.

إذا نعتصم إذا تعلمنا الكتاب، لكن لا بد أن نتعلم بطريقة صحيحة؛ لأن هناك مدارس تحفيظ كثيرة على مستوى العالم الإسلامي؛ والخريجون من مدارس التحفيظ عدد لم يسبق مثله في تاريخ الإسلام، والمصاحف كثيرة، لكن ينقصنا في تعليم الكتاب: فهم معناه. لا نريده لفظاً فقط؛ لأن الخوارج -الذين يمثلون اليوم كلمة الإرهاب- وصفهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: «يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتِكُمْ مع صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مع صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مع عَمَلِهِمْ، وَيَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»^(١) يعني هم علينا وليسوا معنا!

إذا العلم سبب للاعتصام، كيف يكون تعلم القرآن؟ بلفظه ومعناه، ثم كلمة (التدبر) تحتاج إلى تفاهم؛ حتى كلمة التدبر أُغلقت في عقولنا، من كثرة تداولها بسطحية، صار معناها مثلاً اللمسات البلاغية! فأفسدت في الكلام.

الشاهد: أن نتعلم اللفظ والمعنى، ننتقل للنص التالي:

(١) أخرجه أحمد (١١٥٧٩).

• حدثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَبَّاحٍ، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ، قَالَ: سَمِعْتُ عَوْفًا، أَنَّ أَبَا الْمُنْهَالِ حَدَّثَهُ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا بَرزَةَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يُغْنِيكُمْ -أَوْ نَعَشَكُمْ- بِالْإِسْلَامِ، وَيُمَحِّمِدُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

"قال أبو عبد الله: وَقَعَ هَا هُنَا: يُغْنِيكُمْ، وإنما هو: نَعَشَكُمْ، يُنْظَرُ فِي أَصْل كِتَابِ الْاِعْتِصَامِ". ولفظ: "يُنْظَرُ" ليس عند ابن عساكر.

← ينقل البخاري -رحمه الله- عن أبي برزة وهو صحابي من صحابة النبي، يعاتب بعض التابعين وصغار الصحابة في كونهم ضعيفي التمسك بالسنة -وهذا شيء لا يوصف بالنسبة لنا! لكنه يرى حرارة تمسكهم في مكانه، ويراهم كأنه ذبل تمسكهم وخاف عليهم من الدنيا-.

فقال: (إِنَّ اللَّهَ يُغْنِيكُمْ -أَوْ نَعَشَكُمْ- بِالْإِسْلَامِ، وَيُمَحِّمِدُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-): (نعشكم) بمعنى: أنكم أصبحتم في حال جيدة في حياتكم، أو (يغنيكم) بمعنى: أنكم أصبحتم أغنياء، ليس المقصود أغنياء بالدنيا، وإنما الغنى غنى النفس، بمعنى: مستغنين عن الدنيا.

وهذا معناه: أنكم في أي شأن تريدون إصلاحه سواء كان يتصل بالدنيا أو يتصل بالآخرة، فأنتم في غنى تمامًا عن غير الإسلام، فلا تحتاجون أي فكر وافد واحد، ولا تحتاجون أي مفكر، بل تحتاجون أن تنكبوا على القرآن وعلى سنة النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وتعتصموا بها، وكل

حاجة فكرية ستجدونها موجودة، وكل حاجة في التربية ستجدونها موجودة، وكل حاجة تتصل بالاقتصاد ستجدونها، لكن نتعوذ بالله من الكسل؛ لأن أصحاب النظريات يأتون بكلام جاهز من عند العُمي ويأخذونه ويترجمونه وينقلونه لنا! وأسوا من ذلك أنهم يفتشون في كتاب الله ويلوون عنق النصوص ويستشهدون بها لمصلحة كلامهم! لدرجة أن الشرك يستشهدون عليه بآيات من كتاب الله! وكما يقولون في المسائل التي تتصل بالطاقة: "الطاقة ذُكرت في القرآن والطاقة تنفعك!" ثم يقولون: إن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «اللهمَّ اجعلْ في قلبي نورًا، وفي لساني نورًا، وفي بصري نورًا، وفي سمعي نورًا»^(١)

فهل هذا النور في السمع والقلب صار من الطاقة؟! وأين نور الإيمان ومعنى (نور) في القرآن وأنه شفاء وهدى؟!

فأبو برزة قال: (إِنَّ اللَّهَ يُغْنِيكُمْ -أَوْ نَعَشَكُمْ- بِالْإِسْلَامِ، وَبِمُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-) أي: كأننا كنا ميتين ثم أتى النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وانتعشنا به، ونحن في حال نحتاج إلى انتعاش! كأننا على سرير المرض! كأن الأمة كلها على سرير المرض! بماذا انتعش الأوائل؟ انتعشوا بالإسلام وبسنة النبي.

(١) أخرجه البخاري (٦٣١٦).

ونحن مختلفون عن بقية الأمم، بقية الأمم يتطورون بالمال وبوسائل الحضارة وبالنظام، إلا نحن ما نتطور إلا بما نعش الله به نبيّه -صلى الله عليه وسلّم-.

ثم لما نتلمّس الحالة التي نعيشها، فنحن في الحقيقة نعيش هزيمة نفسية! والمهزوم يرى المنتصر ماذا يفعل ويقلده! كما قال النبي -صلى الله عليه وسلّم-: «لتركبَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِيرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبِّ لَدَخَلْتُمُوهُ»^(١)

ثم الناس حينما يدخلون جحر الضبّ الذي دخلوه، يقولون: "هل هو حرام؟! "أولاً لا تأتِ بمسألة مجردة وتقول: "هل حرام أو حلال أن أمشط شعري بهذه الطريقة؟"، لكن دعنا نأتي بأصل المسألة، أنت تعيش مشاعر المهزوم، ولا تنتعش بالإسلام، ولا تشعر أنك مستغنٍ. فمشاعر الهزيمة هذه تدلّ على أنك ما شعرت بنعمة أن الله أكمل لك الدين ولا أتمّ عليك النعمة، ولا رضي بالإسلام ديناً! ما تشعر بالعزة، والله هو العزيز! ومهما حصل للمسلمين فلن يكونوا مثل حال أصحاب الأخدود الذين ألقوهم في النار وهم عليها قعود، ويرون المؤمنين ماذا يحصل بهم، ومع ذلك لما سلط الله أهل الكفر على أهل الإسلام، قالوا: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، العزيز: أي: القادر على أن يرد

(١) أخرجه أحمد (١٠٦٤١).

بطشهم؛ وهو الحميد المحمود على اختبار المؤمنين، ويميز بين الصادق والكاذب، ثم في نفس السورة الله يقول: لا يخدعك الواقع: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

فلا تظن أن الواقع يدل على أن أهل الكفار يدالون على أهل الإسلام أبداً؛ ولذلك في سورة غافر قال الله:

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾^(١).

وفي آل عمران قال:

﴿لَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ

جَهَنَّمَ وَيَسَّسَ الْمِهَادُ﴾^(٢)

وهو كله اختبار، بين إحساس بأننا مهزومون، وبين أن ينصر الله الدين، وبين أن نموت، فهل أنت واثق في الدين، أم تنتظر حين ينتصر أهل الدين ثم تصدقه؟! أم تؤمن بأن الله عزيز وحميد؟! فهو عزيز، قادر على نصره المؤمنين، بل قد نصرهم.

تصور هذه النصره العجيبة! فيأتي الطفل أو المرأة أو الرجل على حدود النار ويمتحنون، يقولون لهم: "إذا أردتم ألا تُلَقُوا في النار

(١) غافر: ٤.

(٢) آل عمران: ١٩٦ - ١٩٧.

فاكفروا!" فينصرون الدين في أنفسهم، فيُلْقوا في النار ولا يكفروا! فهذه نصره. أن تنتصر القيم الإسلامية، أن ينتصر التوحيد على أهل الشرك، ببقائهم على الدين، فهذه نصره، الله أعز الدين بهذا.

وبقي هذا الخبر وسيبقى إلى قيام الساعة، أصحاب الأخدود نحن لا نعرفهم أشخاصًا لكن تتلى آيات الله فيهم في المساجد وفي كل مكان يُضرب بهم المثل، وكلما حصل للمسلمين مشقة، قيل: "اقرأ سورة البروج." فهذا نوع عزة يعرفه من عرف أن الله أغنانا بالإسلام وأنعشنا. ويُعلم أن الله حميد في كل تصريفه لخلقه، وفي كل أفعاله وتدبيره.

والشاهد: أن من أراد الوصول فليغتنِ بالإسلام -يصبح به غنيًا- ولا يطلب غيره منهجًا ولا يستقيم على غيره، وليعلم أن الله نعش نبيّه وأصحابه وهذه الأمة على مر العصور، بالإسلام، بالكتاب والسنة وليس بغيرهما، فمهما استوردوا واقترحوا ومهما تكلم الناس في نصره هذا الدين، فلا يوجد حل إلا الاجتماع على التوحيد. لكن طالما انتشر الشرك هنا وهناك، فسيبقى الناس على حالهم! إلى أن ينتصر التوحيد، إلى أن يقوم الخلق لله وحده، وحينئذ تأتي مبشرات النصر، والحمد لله المبشرات موجودة ويُنشر الآن التوحيد.

إِذَا لِمَاذَا نَعْتَصِمُ، مَا دَلَالَةُ النَّصِّ عَلَى الْاِعْتِصَامِ؟

لأن النبي ما انتعش إلا بكتاب الله؛ وصحابته ما انتعشوا إلا بالكتاب والسنة. فمن أراد هذا الانتعاش، لا بد أن يعتصم بالكتاب والسنة.

نأتي للنص الأخير في مقدمة الكتاب:

• حدثنا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، كَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ يُبَايِعُهُ، وَأُقِرُّ بِذَلِكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فِيمَا اسْتَطَعْتُ.

← هنا ابن عمر يبائع عبد الملك ابن مروان، قال: (وَأُقِرُّ

بِذَلِكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فِيمَا اسْتَطَعْتُ.)

وهذا الكلام إشارة للاعتصام، فانظر أين هو ابن عمر وأين عبد الملك بن مروان من جهة التقوى والصحبة؟ الفضل لعبد الله بن عمر، ومع ذلك من اعتصامه بالكتاب والسنة أقر له بالسمع والطاعة حينما أصبح وليّ أمر له، أقر له بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله وليس على الهوى؛ فيما استطاع. معنى ذلك أن الاعتصام يكون في كل أنحاء الحياة، ويكون المعتصم متمسكًا بالكتاب والسنة ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

الشاهد: أن البخاري -رحمه الله- أورد كل هذه المقدمة ليقول:

- لا بد أن نعتصم بالكتاب والسنة لأن الله أكملهما، وأتمهما ورضيهما لنا؛ ونحن نرضى بما رضي الله.

وهذا تعبيره، حين نقول في الأذكار: "رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا". من يقول: "رضيت" فليرضَ بما رضي الله، والله رضي الكتاب والسنة، وهذا الكتاب الذي اهتدى به النبي فأصبح هديه وسنته من الكتاب.

- ثم الذي يريد أن يهتدي بالكتاب والسنة لا بد أن يتعلم، لكن كونك فقط تقول: "أنا أريد أن أعتصم بالكتاب والسنة، يا رب اهديني" ولا تأخذ بالأسباب! فهذا أمر غير مقبول حتى في أمر الدنيا، لو عندك صغير يقول: "يا رب أنجح" دون أن يدرس! مباشرة نقول له: "لا، ربنا على كل شيء قدير، لكنه جعل الأسباب سنة في الأرض" وما نقوله على شأن الدنيا، نقوله على شأن الآخرة: من أراد أن يعتصم وأراد النجاة فليتعلم.

والحمد لله اليوم العلم مُيسر، ومن أراد أن ينتفع بما هو موجود فهو من أراد الله له أن ينتفع. والحمد لله اليوم التفريق بين منهج أهل السنة والجماعة وغيرهم واضح، وكل شيء موجود وأنت في بيتك الآن؛ بقي أن يشرح الله الصدور للعلم ونحن نقول في الصباح: "اللهم إني أسألك علمًا

نافعًا ورزقًا طيبًا وعملاً متقبلاً!" والله يناول الخلق الأسباب لكن الخلق إما يقبلون أو يدبرون.

- ثم هذا الاعتصام هو سبب ما حصل في حياة النبي وحياة الصحابة والأجيال التي كان فيها انتعاش الإسلام، فلم ينتعشوا بالمال ولا كانوا بحاجة للمال، لكن كانوا بحاجة للإيمان، ثم لما أتى الإيمان، نعشهم الله، ثم أتت نعمة الله دارة عليهم. وهذا الأمر واضح، حينما يأتي التوحيد والإيمان، تأتي النعم دارة من الله.

- ثم علمنا من كلام ابن عمر أن الاعتصام بالكتاب والسنة يكون في شأن الحياة كلها، في كل العلاقات، مع الأهل والخاصة، وهنا من ابن عمر كان مع ولي أمره.

نبدأ أول باب في الكتاب:

بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: **"بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ"**

• حدثنا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنِ ابْنِ شَهَابٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: **"بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي أُتِيْتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، فَوَضَعَتْ فِي يَدِي"**، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَدْ ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَنْتُمْ تَلْغُوثُهَا - أَوْ تَرْغُوثُهَا، أَوْ كَلِمَةٌ تُشْبِهُهَا.

← ماذا يُقصد بجوامع الكلم؟

يعني كلمات قليلة المباني لكنها غزيرة المعاني. هذا وصف للكتاب والسنة، يعني الكتاب والسنة من جوامع الكلم.

وما فائدته في الاعتصام؟

حينما نأتي لعقول الناس، يأتون إلى الكتاب فيرون كلمات قليلة ولا يفهمون أنها من جوامع الكلم، يقرؤون ظاهرها ولا يتعلمون ويقولون: "كيف لهذا القرآن أن تصلح به كل حياتنا؟"، أو يقولون: "قرأنا ولم نجد ما نريده!" يريدون من القرآن أن ينطق لهم نطقًا، أو يصف حالهم وصفًا، فالنبي يقول: **(بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ)**، يعني كلمات قليلة، قلبيها، تجد فيها كل المواقف التي تبحث عنها.

مثلا: مثل سورة النور في وصف النور في قلوب المؤمنين.

كيف ضرب الله مثل النور في قلوب المؤمنين؟

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۚ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۚ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُورٌ عَلَى نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

هذه الآية

- تصف نور الإيمان في قلب المؤمن.

- وأيضًا يتكلم عن الفطرة السوية وأنها تشبه الزيت الصافي.
 - ثم في الكلام عن الدنيا يخبر عن الزيتون وأن زيتته مميز عن بقية الزيت.
- فتقلب نفس الآية، فتجدها منهجًا يصلح في التربية، حافظ على أبنائك،
- وإن قلوب أبنائك صافية لأن فطرتهم سوية، ثم أشعل لهم العلم وسيوقد الإيمان.
- وحينما نأتي في نفس السياق نجد أن هذا يكون في المساجد، مكان المحافظة على فطرتهم السوية.
- وحينما نتكلم عن الكبار نقول: الإيمان في قلوبهم كالنور، فلو ما حافظوا عليه ووضعوه في كوة، ستأتي الرياح وتطفئ هذا النور! وهكذا تقلب وتقلب فتجد الآية الواحدة تأتيك بأبواب كثيرة، لكن الجهل يجعل القارئ لا يفهم أصلاً معنى الآية، فكيف يمكن له أن يخرج من آية واحدة عدة وجوه، أو يأتي منها بفوائد متعددة؟! **الشاهد:** أن النبي بُعث بجوامع الكلم.
- السلام عليكم ورحمة الله

اللقاء الثاني

تابع بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ: "بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ"

بَابُ الْإِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله -عزَّ وجلَّ- حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا أن جمعنا في هذا المكان العظيم، وهذه البلد التي يحب الله -عزَّ وجلَّ- أرضها وهي عنده -سبحانه وتعالى- لها شأن، ومن وفقه وجعل قدمه تطأ هذه الأرض، فقد وطأت قدمه موطأ الأنبياء، فمن سار على من وضع قدمه موطئ قدمهم، فليسير على سننهم وسنة المصطفى -صلى الله عليه وسلم-.

ومما نذكر أنفسنا به، أن الصلاة في هذا المكان العظيم بمئة ألف صلاة، يعني إن حسبتها، تقريبًا الصلاة الواحدة كأنك صليت خمسة وخمسون عامًا، فهذا كله من فضله، أسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يجعلنا من الشاكرين!

ثم جمع لنا من الفضل أيضًا أن هذا الشهر العظيم شهر محرم من الأشهر العظيمة عند الله، من الأشهر الحرم.

ثم جمع لنا فضلاً خاصاً بأن نجتمع في مجلس من مجالس الذكر،
أسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يجعل عملنا جميعاً خالصاً لوجهه.

فاجتمعت فضائل، أسأل الله أن يجعلنا من الشاكرين على هذه
الفضائل، المنتفعين بها، وأن تكون سبباً لزيادة إيماننا، اللهم آمين.

كنا أمس بدأنا في قراءة هذا الكتاب العظيم من صحيح البخاري وهو
كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة واتفقنا أن اعتبره عظيمًا في ذاته -يعني

مسألة الاعتصام بالكتاب والسنة مهمة في كل وقت- هو ائتمار بأمر الله،
إذ قال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾^(١). فمناقشة الاعتصام إنما هو

مناقشة أمر من أوامر الله، ثم يزيد الاهتمام بهذا الأمر واعتباره عظيمًا:
كون أننا نعلم ماذا يحصل في العالم الإسلامي وكيف الناس حقيقة لو

يُراد وصفهم من ناحية فكرية وعقدية، ومن ناحية أحوالهم واستقامتهم،
نقول: "نحن في بحر لُجِّي"! أمواج تتلاطم بالمسلمين، وإذا تأملنا في سورة

النور سنرى كيف وصف الله حال أعمال الذين كفروا، ضرب مثلين:

المثل الأول: كسراب. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ

يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ

حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

(١) آل عمران: ١٠٣.

والمثل الثاني: كظلمات في بحر لُجِّيّ. قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا﴾.

وهذه الظلمات التي في بحر لُجِّيّ، صاحبها ما يرى شيئاً من الحق، تأمل في الآية: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا﴾. هو يده ستكون قريبة منه غاية القرب، ومع ذلك لا يبصرها!

وكذلك الإنسان حين يكون في بحر لُجِّيّ من جهة الفتن، قلبه حتى لو وضعت الحق أمامه كما تضع اليد أمام العينين ما يرى الحق! إلا أن يعصمه الله، يعني ليس لأننا نتلوا كتاب الله، وليس لأننا مكتوب في بطاقتنا (مسلمون)، وليس لأننا توارثنا الإسلام يمكن أن نتمسك بالحق. بل التمسك بالحق منّة إلهية محضة، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ (١)

وإشارة تحبيب الإيمان وتزيينه في القلب: أن يكون الإنسان قوي الاعتصام بالكتاب والسنة.

وكنا أمس اتفقنا على أن الاعتصام معناه: التمسك.

(١) الحجرات: ٧.

لكن كلمة الاعتصام أكثر وصفًا لخوف المعتصم، والله يقول: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ فقلنا حبل هذه الكلمة العظيمة، كأنها تصف لك بحر لُجِّيّ أسفل منك، ومُدّ لك من السماء بحبل، على قدر تمسّكك به، وعلى قدر خوفك من أن تقع، على قدر ما تكون النجاة. أسأل الله - عزّ وجلّ- أن ينجينا نحن وذريتنا والمسلمين جميعًا، اللهم آمين. وكنا قد مررنا سريعًا على مطلع الكتاب.

- بدأ بمقدمة لكتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

- ثم أخبر عن أسباب الاعتصام.

فكان أول سبب كما مرّ هو: أن الله - عزّ وجلّ- قد أكمل هذا الدين،

وأتمّ النعمة، ورَضِيَ لنا الإسلام.

فكان الواجب أن نكون من أولئك القوم الذين رضوا بما رضي الله لهم.

ثم ناقشنا مسائل، إلى أن ابتدأنا في الباب الأول، قال:

بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ"

ونحن دائمًا حينما يضع البخاري اسمًا للباب، نقارن بين اسم الباب

واسم الكتاب.

يعني هو يقول: (بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ

الْكَلِمِ")

وهذا معناه أن هذه الجملة من الحديث متصلة بكتاب الاعتصام. سنرى العلاقة بين قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: **(بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ)** وبين الاعتصام.

هو أورد في الباب حديثين، الحديث الأول فيه هذه الجملة من كلام النبي **(بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ)**.

لنفهم العلاقة سنسأل: ما معنى جوامع الكلم؟

معنى **جوامع الكلم**: الكلام القليل الذي يتضمن المعاني الغزيرة.

نأتي الآن نقول: ما العلاقة بين جوامع الكلم والاعتصام؟ ما العلاقة

بين أن نصف الكتاب والسنة أن فيهما جوامع الكلم وبين الاعتصام بالكتاب والسنة؟

الجواب: أن هذا الكتاب الذي نريد أن نعتصم به ألفاظه قليلة

ومعانيه غزيرة.

فماذا يحتاج منا؟ يحتاج منا فهمه وتدبره والنظر له، وهذا مبني على

الثقة فيه؛ لذا لا بد أن نسمع المقدمة الماضية من كلامه؛ لنعرف أن هذا

الكتاب رضي الله، أن هذا الدين رضي الله، أكمله، أتمه، رضيته.

معنى ذلك أن كل ما تحتاجه لتزكية نفسك وصلاحها وصلاح المجتمع

وتربية الأبناء ووصولهم إلى النجاة، وكل ما تحتاجه... موجود في الكتاب.

قد يفتح القارئ كتاب الله بعدما وثق هذه الثقة، ويفتح سنّة النبي -
صلى الله عليه وسلّم-، ثم يقول: "لكني لم أجد ما أريد!"
نقول: "النبي -صلى الله عليه وسلّم- قال: (بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ) " إِذَا
ستجد كلامًا قليلًا فيه معانٍ غزيرة. ما المطلوب منك؟ بذل الجهد فيها
وتقليبها، وفهمها الفهم العميق المعتمد على منهج السلف.
وهنا نريد أن نبين شيئًا خطيرًا يمكن أن يخطفنا في الطريق! وهو: أن
كلما أتى آتٍ، وقرأ القرآن وهو منفصل عن منهج من سلف، تجده لا بد
أن يدخل في التعالم، لا بد أن يدخل في القول على الله بلا علم؛ لذلك
سيأتي البخاري في الباب التالي، وكأنه يقول: "نعم، موجود في كتاب الله
كلّ ما تريده، لكن لا تفهمه كما تريد، إنما افهمه على فهم من سلف".
يعني فهم النبي -صلى الله عليه وسلّم- وأصحابه الكرام ومن بعدهم،
نحن لسنا منفصلين، وهذا الأمر نذكر أنفسنا به ونقول: انظروا حين
نطوف في البيت العتيق، وبعدهما ننتهي من الطواف، ونأتي مقبلين على
المقام، نقول: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾^(١)، يعني أنت تذكر
نفسك بأنك لست منبئًا، منقطعًا، من جهة الوصل، بل أنت الآن تصلي
في المكان الذي كان مقام إبراهيم -عليه السلام-، أنت لست منقطعًا، أنت
لك صلة بالأنبياء كلهم؛ ولذا حين تضع قدمك في منى -أسأل الله عزّ وجلّ

(١) البقرة: ١٢٥.

أن يرزقنا حجًا مبرورًا ويقبل من الحجاج حجّهم- وترى مسجد الخيف
يقال لك ما قاله النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**صَلَّى فِي مَسْجِدِ الْخَيْفِ**
سبعون نبيًا منهم موسى -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-»^(١)

فأنت لن تخترع في الدين! ممنوع!

فالاعتصام معناه سأعتصم بالكتاب والسنة على منهج مَنْ اعتصم
قبلي، فلا آتٍ أنا بأمر خارج عن القوم الذين كانوا قبلي.
سيأتي هذا واضحًا جدًّا في باب الاقتداء بسنن رسول الله -صَلَّى اللهُ
عليه وسلّم-.

هنا اتفقنا على أن كل ما تريده موجود في كتاب الله، وستجده بطريقة
منهجية، وليس عن طريق الاختراع! يعني نأخذ اللفظة ونضعها في أي
موضع! خصوصًا ونحن منقطعين من جهة اللغة، كأننا أعاجم! من جهة
الأساليب العربية منقطعين، يعني لا نعرف الاستفهام الاستنكاري من
الاستفهام التقريري، كل هذا غير واضح، فحين نقرأ في كتاب الله، ولا
نفهم كما فهموا، معنى ذلك أننا نقول على الله بلا علم! ومعلوم في آية
الاعراف خطر القول على الله بلا علم؛ ولذا الاعتصام بالكتاب والسنة
والتمسك بهما معناه: أن تتجرد من أفكارك ومن أهوائك، وتجعل الكتاب
والسنة على فهم من سلف قائدين لك، وليس رأيك؛ ولذا اليوم الناس

(١) أخرجه الطبراني (٤٥٣/١١) (١٢٢٨٣).

يعجبون بكثير من الفصحاء والخطباء، حتى الإنسان نفسه يكون أعطي فصاحة وبلاغة فيستطيع أن يتكلم، ثم يوسوس له الشيطان بأفكار ويفهم على مراده، وحين يفهم يشعر أنه ذكي وفهم ما لم يفهمه الأوائل، يعني أتى بما لم يأت به الأوائل، وهو في اللغة الله يعلم بحاله، وفي الاستقامة الله يعلم بحاله...

الناس يغترون به لفصاحته، وهو يغتر بنفسه كذلك للفصاحة، وقدرته على الكلام، وفي النهاية يقتنعون بكلامه، وهو يتقوّل على الله بلا علم.

وليُعلم أن هذه الجريمة أعظم أو في درجة الشرك! بدليل آية الأعراف:
﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال أهل العلم في هذه الآية: "إنها بدأت بالأدنى إلى الأعلى" يعني الأدنى: الفواحش، الظلم، البغي، ثم يأتي الشرك ويأتي ما هو أعلى منه: القول على الله بلا علم. وإذا ما كان أعلى منه فهو في مرتبته، وهذا شيء خطير لا بد أن نفهمه جيدًا، حين نريد أن نعتصم لا بد أن نكون حذرين، الكتاب فيه كل ما تريد، السنة فيها كل ما تريد، لكن كيف تفهمهما؟ سنتفق اليوم كيف نفهمهما.

إِذَا لَمَّا قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: **(بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ)** معناها أن القرآن والسنة التي أتى بها النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فيهما كلام قليل ومعانٍ غزيرة ستشمل كل الحياة.

والذي سيستخرجها وينتفع منها، هو الذي سيسير على الطريق المستقيم، المعتصم سيكتفي بهما.

سنقرأ الحديث الثاني في نفس الباب (بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: **"بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ"**) ونرى معناه باختصار ثم ننتقل للباب الجديد:

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري -رحمه الله تعالى- في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة في باب قَوْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: **"بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ"**:

• حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: **"مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أَوْ مِنْ - أَوْ آمَنَ - عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ"**.

← الحديث فيه تقرير مجموعة أمور:

الأمر الأول: أن كلَّ نبيٍّ أتى بآية.

(مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أَوْ مِنْ - أَوْ آمَنَ - عَلَيْهِ
الْبَشَرُ)

(أومن) من الأمن.

و(آمن) من الإيمان.

بمعنى: حينما يأتي نبيّ لأيّ أمة، ويدعوهم إلى الصراط المستقيم، لا يقال للأمة: "آمني بلا دليل، بلا حُجة"! وهذا الأمر هو نفسه الذي نفكر به اليوم، كل واحد يأتي بدعوة، أي أحد يأتي بدعوة سنقول له: "ليس بمجرد استحساني للدعوة، سأقبلها، بل لا بد أن تأتي بدليل على الدعوة، والأنبياء لما أتوا للأمم ماذا فعلوا؟ الله -عزَّ وجلَّ- أرسلهم وأرسل معهم دليلاً يقول فيه: "هذا الحق".

الذي يكون متجرداً، مريدًا للحق، سينظر للدليل ويعرف أن هذا الدليل يدلّه على الحق ويوصله إلى الحق، خصوصاً أن كل الأدلة التي أتت مع الأنبياء لا بد أن تكون الفطرة السوية تُقرّ بها، أي شخص عنده فطرة سوية يُقرّ بها، مثلاً إبراهيم -عليه السلام- لما أتى يناقش قومه في عبادتهم للكواكب، ناقشهم مناقشة من ينهم لفطرتهم السوية، لما أتى يناقشهم في كبيرهم الذي عبدوه، ناقشهم مناقشة من معه فطرة سوية. الآن إبراهيم دخل وكسر الأصنام، وبقي واحد -كبيرهم-، أي شخص صاحب فطرة سوية، حينما يرى هذا المنظر يُقال له: "من فعل؟" هو

متأكد أنه لا يمكن أن يكون هذا الصنم هو الذي فعل، وهم متأكدون أنه لا يستطيع أن يفعل، وهم مع ذلك يطلبونه ويسألونه على أنه يفعل! فكان لابد من المواجهة مع الفطرة السوية، "هل هو يفعل أو لا يفعل؟" إذا كان لا يفعل؛ إذا ما ينفعكم.

وإذا كان يفعل؛ إذا اسأله لماذا كسر الباقي؟!

الآن هذه المواجهة مع الفطرة السوية أيقظتهم، لكنهم ردّوا ذلك عنادًا واستكبارًا. فمعنى ذلك أنه لا يوجد نبي يأتي بالرسالة إلا ويأتي بالآيات الدالة على الرسالة.

كل الأنبياء أتوا ومعهم آيات.

الأمر الثاني: قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: **(وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيْتُ**

وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ)

المقصود به: القرآن.

الأمر الثالث: قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: **(فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ**

تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

هذه هي النتيجة المهمة الآن، لماذا يرجو أن يكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة؟ لأن هذه الآية من أعظم الآيات التي نزلت على الخلق إطلاقًا، والناس في دعوتهم لربهم، لا يحتاجون غير بيان هذه الآية، يعني حينما تريد زيادة إيمان المؤمنين، ما تحتاج إلا الكتاب والسنة، وتريد دعوة

الناس إلى الإسلام، لا تحتاج إلا الكتاب والسنة فقط، ولذلك من صفات المؤمنين كما في سورة الأنفال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعني هذا الذي يزيدهم إيمانًا، كلما قرؤوا القرآن، كلما ازدادوا إيمانًا، وحتى أهل الكفر المتجردين، الذين يريدون الحق، كتاب الله هو الذي ينفعهم. طبعًا في هذه العجالة لا يمكن أن نقول كيف توصلهم هذه الأبواب الكثيرة التي في كتاب الله، لكننا نريد فقط أن نوجز المسألة فنقول: "هذا الكلام بنفسه؛ لأن الله تكلم به فإن فيه من الحق ما لا يدركه إلا من أقبل عليه مجتهدًا يريد الحق".

الذي يُقبل عليه مجتهدًا يريد الحق؛ يُشقّ عن قلبه فيدخل إلى فؤاده؛ ولذلك اسمعوا الجن ماذا تقول؟ تقول: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ سَوَّلَنَّا لَنَا نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾. اقرأ سورة الجن جيدًا؛ ستجد أن الجن لمجلس واحد فقط، سمعوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- آيات القرآن؛ خرجوا بكل هذه النتائج التي خرجوا بها، وتبين لهم الحق مرة واحدة. قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ ماذا كانت نتيجة السمع؟ ﴿فَأَمَّنَّا بِهِ سَوَّلَنَّا لَنَا نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾.

يقول الشيخ السعدي -رحمه الله- في تفسيره لهذه الآيات: "آمنوا
الإيمان الحقيقي، وليس إيمان العادة والمربى والإلف"

كأنه سيقسم الإيمان إلى قسمين:

- إيمان حقيقي في ذاك القلب، يستشعر الحقائق، مؤمن،
مصدق.

- أو إيمان العادة والمربى والإلف.

كلمة مختصرة، الآن أحياناً نطوف في الحرم، فيقول صاحب إيمان
العادة والمربى والإلف: "اجري في الطواف!"

وصاحب الإيمان الحقيقي يقول: "احتسب، فكّر، ترفع قدمًا فترتفع
درجة، تضع أخرى، تُحطّ عنك خطيئة، وهنا طاف النبي -صلى الله عليه
وسلم-، وهنا طاف الأنبياء، وبذلك أنت تشابه الملائكة في الطواف، فوق
الكعبة البيت المعمور، حتى أنه في بعض الآثار أنه لو سقط، لخرّ على
الكعبة"

هذا هو الإيمان الحقيقي، الذي تُصبح فيه حقائق الإيمان متمثلة
أمام عينيك.

أما صاحب إيمان العادة والمربى والإلف يريد أن ينتهي سريعاً من
العمرة! ما تمتع!

أما الإيمان الحقيقي يجعل السجود هذا قربًا، يجعل قول: "سبحان ربي العظيم" يزيد الإيمان والتقوى، وهكذا.

فلا يزيد الإيمان إلا بالقرآن، وكلما زاد الإيمان، كلما انتفعت من القرآن أكثر.

يعني ننظر لحالنا في رمضان، نقرأ الآيات كأنها مفاجأة لنا! مع أن هذا الذي كنا نقرأه طوال السنة، لكن لأن الغمة انقشعت عنا، غمة العدو الشيطان، حُبِسَ عنا، فأصبحنا حينما نقرأ القرآن، كأننا ما كنا نقرأه.

فالمقصد الآن: أنه بالقرآن والسنة يزداد الإنسان إيمانًا، ويدعو الناس إلى الطريق المستقيم، ويثبت على الطريق؛ ولذلك الله -عزَّ وجلَّ- في سورة النساء يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الخطاب لمن؟ للمؤمنين.

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ﴾ يعني: أنتم مؤمنون، وآمنوا.

﴿آمِنُوا﴾ صحَّحوا إيمانكم.

﴿آمِنُوا﴾ زيدوا إيمانكم.

﴿آمِنُوا﴾ اثبتوا على إيمانكم.

وكأنها دائرة تبدأ بالقرآن وتنتهي بالقرآن، تبدأ بالسنة وتنتهي بالسنة، نسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يرزقنا الإيمان نحن وذرائعنا والمسلمين أجمعين، اللهم آمين.

المقصد الآن: أن الذي أتى به النبي -صلى الله عليه وسلم- هو القرآن، والذي سيجعل أكثر تابعيه إلى يوم القيامة هو القرآن، والمقصود القرآن والسنة.

نحن لا نقول: (القرآن) إلا ونقصد: (القرآن والسنة).

ومعنى هذا: أنه لا يوجد طريق يوصلك إلى الحق إلا أن تنكب على القرآن والسنة، لا تحتاج إلى اختراعات، لا تحتاج إلى كلام من عند هؤلاء ولا من عند هؤلاء، فقط تحتاج إلى القرآن والسنة على فهم سلف الأمة، وسيتبين الآن من الباب الثاني مباشرة: **كيف يكون تناول القرآن، وتناول السنة؟**

بَابُ الْإِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، قَالَ (١): أئِمَّةٌ نَقْتَدِي بِمَنْ

قَبْلَنَا، وَيَقْتَدِي بِنَا مَنْ بَعْدَنَا.

(١) مجاهد.

قَالَ ابْنُ عَوْنٍ: ثَلَاثٌ أَحِبُّنَّ لِنَفْسِي وَإِلْخَوَانِي: هَذِهِ السَّنَّةُ أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا، وَيَسْأَلُوا عَنْهَا، وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ وَيَسْأَلُوا عَنْهُ، وَيَدْعُوا النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ.

← اسم الباب: (بَابُ الْإِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-).

فكأنه يقال: النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أتى بجوامع الكلم، وستفهم هذه الجوامع حينما تقتدي بسنن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وسنرى الآن ما أتى فيه.

قال: (وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾)، وهذه الآية في سورة الفرقان، وهي من أدعية المؤمنين الذي هم عباد الرحمن، ماذا يقول هؤلاء عباد الرحمن؟ ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، يعني من مطلبهم: أن يكونوا للمتقين إمامًا.

سنبدأ أولاً بنفي شيء عنهم، ثم نكمل...

لماذا يريدون أن يكونوا للمتقين إمامًا؟ ليس الحال كما يُتصور عند الإنسان حينما يحب الشهرة ويحب القيادة ويحب أن يسمعه الناس، هم لا يقصدون ذلك؛ لأنهم أول ما وصفوا في السياق، وصفوا بأنهم: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، معناها أنهم يملكون من الذل والانكسار لرب العالمين، حتى أن أقدامهم تستحي أن تفتخر على الأرض!

هذا ذلهم، فلا يمكن أن يكون أول وصفهم ذلًا، وآخره فخراً! لا، لكن المقصود أنهم يحبون أن يجعلوا هؤلاء في موازينهم يوم القيامة، ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، من أجل أن نرشد الناس.

ثم ينقل كلام المفسرين، المفسر هنا هو مجاهد.
ماذا قال مجاهد؟ هنا سننظر للآية التي في سورة الفرقان من جهة الاعتصام.

أنت لتصير للمتقين إمامًا، ماذا تحتاج؟ قال مجاهد: "أن نقتدي بمن قبلنا ويقتدي بنا من بعدنا"

تصوروها جيدًا، أنت واقف في الوسط، وتريد أن تكون إماما لمن ورائك، من ذريتك، أبنائك، مثلًا طلابك، جيرانك، إلى آخره.
لماذا تريد أن يقتدوا بك؟ هل لتفخر عليهم؟ لا، من أجل أن يكونوا في الميزان.

لكنهم ليسيروا ورائك كما ينبغي ويكونوا في الميزان، لا بد أن تكون قد نظرت لمن قبلك.

فلا تنسوا كلامه هذا مهم جدًا في تفسير الآية، الذي يريد أن يكون للمتقين إمامًا، ماذا يفعل؟ قال: (أئِمَّةً نَقْتَدِي بِمَنْ قَبْلَنَا، وَيَقْتَدِي بِنَا مَنْ بَعْدَنَا).

إذا الذي يريد أن يسير في الصراط المستقيم، وينتفع من كلام رب العالمين، وينتفع من أحاديث النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ويرى فيها أنها سبب لإيمان الخلق، كيف يسير في كلام الله وكلام رسوله؟ هو بنفسه يقتدي بمن قبله في فهم كلام الله، وفهم كلام رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وفي السير على الصراط المستقيم، ثم يقتدي به من بعده. في مقابل أن كل الناس غير المسلمين، حينما يريدون أن يبنوا حضارة، أكثر شيء يميزهم حينما يبنون الحضارات: أنهم يقطعون صلتهم بالحضارة السابقة.

في مقابل أهل الإيمان لا يرون ذلك، إنما عندهم وصل من إبراهيم -عليه السلام- والأنبياء كلهم، إلى أن وصلنا إلى رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

فالذي يريد أن يكون للمتقين إمامًا والذي يريد أن ينتفع بكتاب الله، ماذا يفعل؟ يجب أن تكون عينه على من قبله، والقوم الذين ورائه ينظرون إليه، وهو يدلهم كيف كان حال الذين من قبلهم، وسنرى في الباب هذا التسلسل بوضوح من خلال الأحاديث.

الآن اسم الباب تكون من ثلاث جمل:

الجملة الأولى: بَابُ الْإِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

الجملة الثانية: وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾. قَالَ: أئِمَّةٌ نَقْتَدِي بِمَنْ قَبْلَنَا، وَيَقْتَدِي بِنَا مَنْ بَعْدَنَا.

الجملة الثالثة: قَالَ ابْنُ عَوْنٍ: ثَلَاثٌ أَحْبَبْتُ لِنَفْسِي وَإِخْوَانِي: هَذِهِ السُّنَّةُ أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا، وَيَسْأَلُوا عَنْهَا، وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ وَيَسْأَلُوا عَنْهُ، وَيَدْعُوا النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ.

ابن عون تابعي، من صغار التابعين، عُرف عنه التقوى والإيمان، ومتابعة السلف الصالح.

ماذا يقول؟ كأنه يشرح لك ما معنى الاقتداء بسنن النبي -صلى الله عليه وسلم-:

(ثَلَاثٌ أَحْبَبْتُ لِنَفْسِي وَإِخْوَانِي) فكأنه يقول: "افعلوا ثلاثة أفعال":

(هَذِهِ السُّنَّةُ أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا، وَيَسْأَلُوا عَنْهَا).

(وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ وَيَسْأَلُوا عَنْهُ).

(وَيَدْعُوا النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ). بمعنى يتركون الناس إلا باختصار.

كأن هذه خطة حياة، ما هي مشاريعك؟ كالتالي:

السُّنَّةُ، أتعلمها، وأسأل عما لا أفهمه.

القرآن، ما استعمل معه لفظ: (يتعلمه)، بل استعمل (يتفهمه) يفهم

كل ما فيه، يفهم المراد بالنفي والإثبات الذي ورد فيه، وغيره، ثم يسأل

عما لم يفهمه، لا يصح أن يمرّ عليك كلام الله ثم لا تتفهمه ولا تسأل عنه.

ويدعوا الناس إلا من خير، بمعنى يتركونهم إلا من خير، يعني تترك عامة الناس إلا أن تأمرهم بمعروف وتنههم عن منكر. وعلى ذلك الذي يقتدي بسنن الرسول -صلى الله عليه وسلم- لا تجده يطير من هنا إلى هنا وإلى هنا! وكلّما وقع على الناس أمر، تراه إلا ويدخل فيه، ويتكلم عن كل شيء ويتفلسف! وهذه ليست بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا سنة السلف الصالح؛ لأن هذا القلب مضغّة بسيطة، المساحة فيها ما هي كبيرة، فإذا شغلها بما لا يجب، تاهت منك نفسك، وأنتم تعلمون هذا الشيء، لو قرأت أي كلام في الصباح ثم قرأت بعد الظهر، طبعًا بأجهزتنا هذه التي نقرأ بها، انظر كيف يكون الحال؟! إلا ويدخل الكلام الذي قرأناه داخل صلاتنا! فدع الناس إلا من خير، إما تأمر بالمعروف أو تنهى عن المنكر، أو تترك لهم دنياهم.

المقصد: أن المقتدي بسنة النبي سيكون مقتديًا بمن قبله، ويقتدي به من بعده، وهذا المقتدي ما خطته؟ ثلاثة أمور:

السنة يتعلّمها ويسأل عنها، **والقرآن** يتفهمه ويسأل عنه، **ويدع الناس** إلا من خير.

الآن يتبين لنا تفاصيل هذا أكثر في الأحاديث:

• حدثنا عَمْرُو بْنُ عَبَّاسٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ
وَاصِلٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: جَلَسْتُ إِلَى شَيْبَةَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ، قَالَ: جَلَسَ
إِلَيَّ عُمَرُ فِي مَجْلِسِكَ هَذَا، فَقَالَ: هَمَمْتُ أَنْ لَا أَدَعَ فِيهَا صَفْرَاءَ وَلَا بَيْضَاءَ
إِلَّا قَسَمْتُهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، قُلْتُ: مَا أَنْتَ بِفَاعِلٍ، قَالَ: لِمَ؟ قُلْتُ: لَمْ يَفْعَلْهُ
صَاحِبُكَ، قَالَ: هُمَا الْمَرْءَانِ يُقْتَدَى بِهِمَا.

← في الحديث قصة سنرى شخصياتها:

بنو شيبه معلومون، الذين معهم مفتاح الكعبة، جلس أبو وائل إليه
وهو الذي حدث بالحديث، قال شيبه لأبي وائل: (جَلَسَ إِلَيَّ عُمَرُ) إذا هذه
الشخصية التي دار حولها النقاش.

(فِي مَجْلِسِكَ هَذَا) بجانب الكعبة.

(فَقَالَ -عمر-: هَمَمْتُ -قصدت- أَنْ لَا أَدَعَ فِيهَا -في الكعبة- صَفْرَاءَ -
الكنوز من الذهب- وَلَا بَيْضَاءَ -الكنوز من الفضة- إِلَّا قَسَمْتُهَا بَيْنَ
الْمُسْلِمِينَ). يريد بذلك الكنوز التي كانت موجودة في الكعبة من الجاهلية،
فقد كانوا يتقربون إلى الكعبة بأن يضعوا فيها ذهبًا وفضة.

قال شيبه: (مَا أَنْتَ بِفَاعِلٍ).

فقال عمر: (لِمَ؟) لا أفعل.

قال شيبه: (لَمْ يَفْعَلْهُ صَاحِبُكَ). يقصد الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- وأبي بكر.

فقال عمر: (هُمَا الْمَرْءَانِ يُقْتَدَى بِهِمَا).

معنى ذلك أنه رغم أنه كان يريد خيراً، لكن حينما نهه أن الرسول -
صلى الله عليه وسلم- وأبي بكر لم يفعلوا، توقف، قال: (هُمَا الْمَرْءَانِ
يُقْتَدَى بِهِمَا). رغم أن هذا فيه مصلحة، وما أرادته لنفسه، لكن قدم
وعظم الاقتداء.

سنجمع النصوص كلها مرة واحدة في الفهم:

• حدثنا عليُّ بنُ عبدِ الله، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: سَأَلْتُ الْأَعْمَشَ، فَقَالَ:
عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ، سَمِعْتُ حُذَيْفَةَ يَقُولُ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ-، أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فِي جَنْدِرِ قُلُوبِ الرَّجَالِ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ
فَقَرَأُوا الْقُرْآنَ، وَعَلِمُوا مِنَ السَّنَةِ.

هنا أيضاً سنجد شاهداً على مسألة الاقتداء، هذا حديث ينقله
حذيفة -رضي الله عنه- يقول: (حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-،
أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فِي جَنْدِرِ قُلُوبِ الرَّجَالِ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ فَقَرَأُوا
الْقُرْآنَ، وَعَلِمُوا مِنَ السَّنَةِ).

كأن الحديث مقسوم إلى قسمين:

الجزء الأول: الأمانة: بمعنى الإيمان.

الجزء الثاني: نزول القرآن وتعلم السنة.

كأنه يُقال: الإيمان أتى موافقًا لفطر الخلق؛ ولذلك أول ما نزل الإيمان من السماء وقع في جذر قلوب الرجال، يعني في أصل قلوبهم، كأنه أتى الإيمان وهزهم، فوقع في جذر قلوبهم، مثلما قدمنا سابقًا، قوم إبراهيم - عليه السلام- لو كانوا حافظوا على فطرهم السوية، أو استفادوا منها لما واجههم بأن هذا ما ينفع ولا يضر، لكان دخل الإيمان إلى قلوبهم. لما واجههم بأن الكواكب بنفسها تُسيّر فلا يمكن أن تُسيّر، وأن الكواكب بنفسها تغيب ولا يمكن للإله أن يغيب عن عبیده، لكان وقع في جذر قلوبهم الإيمان، لكن ما حصل هذا!

في مقابل أن صحابة النبي -صلى الله عليه وسلم- لما نزل الإيمان وقع في جذر قلوبهم، يعني أصول قلوبهم التي هي على الفطرة السوية. جذر القلوب بمعنى: أصل القلب، كأن معناها أن أصول القلوب، الفطرة السوية، تغيب زمنًا ثم تنكشف لسبب ما، مثل القوم الذين حين يركبون البحر وتأتيهم الأمواج ويأتيهم الغرق، يدعون الله مخلصين له الدين. ماذا حصل لهم؟ انكشفت الحقائق، وعادت إلى فطرهم السوية.

الشاهد: أن الإيمان لما نزل مع الصحابة، نزل في جذر قلوبهم، في جذر قلوب الرجال. ثم لما نزل الإيمان ما الذي زاده؟ وأوصلهم إلى هذه الحال؟ وكان سببًا للحفاظ على الإيمان وتنمية الإيمان والاستقامة على الإيمان؟ قال: **(وَنَزَلَ الْقُرْآنُ فَقرءوا الْقُرْآنَ، وَعَلِمُوا مِنَ السَّنَةِ).**

وهذا بالضبط يشبه كلام جندب -رضي الله عنه-، جندب هذا من صغار الصحابة، ماذا يقول؟ (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازِدْنَا بِهِ إِيْمَانًا).

فالمقصد أن الاقتداء بسنن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- معناه أننا لا بد أن نناقش الإيمان، لا بد أن نناقش حقائقه، ثم تأتي الآية بعد الآية تزيدنا إيماناً. وهذا الكلام يُخاطَب به الصغير والكبير وكل أحد. نرى الصغير الآن: هذا الصغير من أن يفهم الخطاب ويرد الجواب مباشرة، وعلامات الفطرة السوية واضحة فيه، فهو يعرف **أن كل فعل لا بد له من فاعل**، فطوال الوقت علينا أن نتكلم عن أفعال الله وننسبها إلى الله؛ لنحافظ على هذه الفطرة السوية، فهو في فطرته السوية يعرف أن كل فعل لا بد له من فاعل، وحين يسمع طرق الباب، مباشرة سيسأل: "من؟" لأنه متأكد من أنه لا يمكن أن يكون هناك فعل إلا وله فاعل. وتفاصيل كثيرة في الفطرة السوية، ماذا نفعل بهذه التفاصيل؟ نجعلها سبباً لدخول الإيمان في جذر قلبه. فيرى المطر ينزل نقول: "هذا من عند الله"، يُطعم طعاماً، نقول: "أطعمنا الله"، نُسقى سقياً، "سقانا الله"، نُستر، "سترنا الله"، نُجبر، "جبرنا الله" إلى أن يدخل الإيمان في جذر قلبه.

أنت قد تأخذين صغيرة عمرها تسع سنوات ولا تجدين مقاسها، فبدلاً من أن تقولي: "لا يوجد شيء في السوق على مقاسك، وأنت دائماً تتعبيني!" هذا الموقف نفسه قد يكون سبباً للإيمان، قولي لها: "قال تعالى في الحديث القدسي: «يا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ»^(١)، فاطلبي من الله أن يكسوكِ، والله سيرزقنا، ما دمت طلبتِ كسوته" وهكذا بحيث أن يدخل الإيمان في جذر قلبها، فيصبح الكلام عن الله والكلام عن الدين ومعرفته -سبحانه وتعالى- خطأ أحمر، لا يمكن لأحد أن يقترب منه، لا يمكن أن يأتي أحد ويقنعها بخلاف ذلك، لكن لماذا تتصور أن قومًا شهدوا أن لا إله إلا الله، وصلوا مع أهاليهم، وحفظوا القرآن، لماذا يقبلون مثل أفكار الإلحاد، إلا لأنه ما كان خطأ أحمر عندهم، ما نزل الإيمان في جذر قلوبهم، ما حوِّفَ على فطرتهم السوية؛ فكان سهلاً أن يُدخل على الخط الأحمر أي شيء؛ ومن أجل هذا لابد من إعادة النظر في طريقة التعليم، واتركوا عنكم التعليم النظامي، بل التعليم الخاص بنا في بيوتنا، لا بد أن نعود من جديد ونرى طفل السنين وطفل الثلاث سنوات، كيف يجب أن يُرعى؟ وكيف يجب أن يُنسب له كل شيء إلى الله، يعني الطفل الصغير الآن يعرف أن الحليب، اللبن، نأخذه من الشركات! طوال الوقت أهله يقولون له: "هذه شركة

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

كذا وهذه شركة كذا!" ما يعرف أن هذا اللبن وهذا الحليب، الله رزقنا إياه، وخلق لنا الأنعام، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فيبقى هذا الصغير طوال الوقت ينزل الإيمان في جذر قلبه، ثم يحفظ القرآن فيزداد إيمانًا، إذا المقتدي بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- يهتم بالإيمان، يهتم بأن ينظر إلى أفعال الله، وأفعال الله من أشد الأدلة على وحدانية الله وعلى كمال صفات الله، سماء ذات أبراج، أرض ذات فجاج، بحار ذات أمواج، كل هذا يشهده كل الناس، فلا بد أن يكون له فاعل، وتجد كثيرًا من الخلق يمدحون جبالًا كساها الله بالخضرة، فيمدحون البلد ولا يمدحون الله! الجو من عند الله، والخضرة التي في الجبال أنبتها الله، فمن تمدح؟! واسأل أهل البلاد: من منهم صعد هذه الجبال، وزرع وحصد؟! كلها أدلة على كمال صفات الله -عز وجل-.

فالمقصد: أن العبد المؤمن ينظر إلى أفعال الله ويراهها فرصة ليجعل الإيمان في جذر القلب، وليزداد الإيمان. ولا تشتتوا أبنائنا بعيدًا عن الإيمان. يعني كيف أجلس أنا وأولادي المراهقين ونتكلم في السياسة أو في الاقتصاد؟! الإيمان يُنزل البركات، لا تخيفيه من مستقبله! ومن أمور لا

يستطيعها، "وغدًا ما عندك مستقبل!" الأمر بيد الله، المال من عند الله، الرفعة بيد الله"، نحن نتكلم الآن عن هذه البلاد وبلاد الخليج، أين كنا قبل ستين سنة، قبل أن يرزقنا الله النفط؟! قبل أن يحتاج الناس النفط؟! الله الذي أخرجه من الأرض والله الذي جعل الخلق يحتاجونه، وممكن هذا كله يذهب، لكن نحن ثقتنا بالله، الذي يخيفك يقول لك: "لا يوجد مستقبل"، قل له: "الأمر بيد الله"، الذي يقول لك: "لا توجد أموال، الأموال تأتي من عند الله" الذي يقول لك: "الجزيرة وما حولها لا ماء" نقول: "نحن نستسقي الله، فينزل الله الأمطار"، نحن نعرف طريقنا حينما نحتاج، ولا بد أن يعرف الصغير طريقه حين يحتاج، لا تصور لهم الحياة على أن كلها مخاوف! كيف هذا؟! يعني كيف يؤمن فيأمن، إذا ما دخل الإيمان في جذر قلبه؟ فالمقصد أن هؤلاء الصغار أمانة عندنا، قلوبهم أمانة، لا بد أن ندخل في جذر قلوبهم الإيمان بالله، وأفعال الله العامة والخاصة حولنا واضحة، والخاصة التي تخصنا واضحة جدًا، يعني تتمنين شيئًا فيرزقك فرصتك، يعطيك الله، ينقص علينا شيء، فيسده الله، فرصتك، فهذه كلها فرص لكي تقولي: "من هو الله؟"

المقصد الآن: ثم نقرأ القرآن فنتعرف أكثر على الله، ثم نقرأ السنة فنتعرف أكثر على الله، ولا نحتاج أن نأتيه بأمثلة بعيدة واكتشافات علمية، هو يحتاج الأشياء البسيطة القريبة التي يلمسها، ولا يحتاج أن

نقول له طوال الوقت: "لا تخف، أنا معك، لا تخف من الظلام، أنا بجانبك!" ليس هذا الحل، بل الله ينجينا نحن بأنفسنا، ونحن كبرنا وعرفنا، لكن وهو صغير يتصورنا نحن الكبار حاجاتنا مسدودة! ونحن نعرف أنفسنا كم أننا ضعفاء وفقراء وعاجزون!

فلا بد أن تنتقل هذه المشاعر له، ويصبح معنى اسم **الصمد** ظاهراً في الحياة.

الشاهد: أن المعتصم بالله، لا بد أن يسير على سنن رسول الله، ومن سيره على سنن رسول الله أن تكون عنايته بالإيمان أولاً، وحين يقرأ القرآن والسنة سيزداد إيماناً.

ولذلك الأطروحات الفلسفية، الكلامية السياسية، هذه لها أهلها، أنت الآن حين تربي، لا تشعر المتربي بهذه المخاوف، لا بد أن يشعر أن كل ثقته بالله، وأن الله هو ركنه الشديد، ألم يعلم النبي -صلى الله عليه وسلم- البراء بن عازب في حديث النوم وهو شاب صغير أن يقول: «اللَّهُمَّ أَسَلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»^(١)

(١) أخرجه البخاري (٧٤٨٨).

يعني أنت صمدي، أنت ركني الشديد، أنت أعتمد عليك في كل همومي، أنت عندك الأمان، ومنك الأمان. فالأمان الأمان، وليس الخوف الخوف! **إذا ماذا سنستفيد؟** أن الذي يسير على السنن ينزل الإيمان أولاً، يناقش الإيمان، ثم يعلم القرآن والسنة من أجل أن يزداد الإيمان، وعلى ذلك لابد أن تتحسن طرق التربية؛ لأننا في التربية غالباً تأتينا مشاعر: "أنا أريد أن يحفظ القرآن" خير وبركة أن يحفظ القرآن، لكن الإيمان أولاً ثم حفظ القرآن.

• حدثنا آدمُ بنُ أبي إياسٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، أَخْبَرَنَا عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ، سَمِعْتُ مُرَّةَ الْهَمْدَانِيَّ يَقُولُ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: **إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-**، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَ **إِنَّ مَا تُوَعَّدُونَ لِآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ**.

← الآن هذا النص من كلام عبد الله بن مسعود يكمل

النص السابق

وهو موقوف على عبد الله بن مسعود.

في النص السابق فهمنا أن الأمانة يعني الإيمان، نزلت في جذر قلوب الرجال، لما استولت على جذر قلوبهم وتمكنت منه، كانت باعثة على الأخذ بالكتاب والسنة، تأكدوا وصار عندهم إيمان، فصارت الثقة في الكتاب والسنة.

فحينما يأتي كلام ابن مسعود الآن، يكمل الصورة، يقول ابن مسعود: (إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-) من يرى إن أحسن الحديث كتاب الله؟ من يرى إن أحسن الهدي هدي محمد؟ الذي وقع الإيمان في جذر قلبه، هذا الذي يرى كتاب الله أحسن الحديث ويرى هدي النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أحسن الهدي، ولا نحتاج أن نتكلم عن الواقع، ووصف الواقع واضح، في كون أن الكتاب ضاق مكانه في نفوس الناس! حتى أصبح كأنه فقط يُنتزع منه البركة! يقرأ كلامًا لتنزل البركة! على أنه ينفع الإنسان، لكن كمنهج تفكير، كمنهج حياة، كتربية، لا يُرى أنه أحسن الحديث، وأن هدي النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أحسن الهدي، لو سرت بهما في الحياة، تستقيم حياتك كلها في شتى أنحاءها، ما يُرى هذا الأمر! والسبب واضح في الحديث الذي قبله، ما السبب؟ الإيمان، لو آمنوا بأن هذا كلام الله، وأن من منة الله أن تيسر تحت ألسنتنا، كلام الله الذي تكلم به، من منة الله أن يصبح يسيرًا على ألسنتنا، فالنعمة أمامها شكر، لما جعله الله يسيرًا، كان المفترض أن ننكب عليه، وهذا لو قدرنا الكتاب، وما يقدر إلا إذا كان هناك إيمان بعظمة الله وجلاله ومنته -سبحانه وتعالى- على خلقه بأن جعل لهم هذا المنهج؛ ولذلك ذاك الأعرابي لما رأى أحد السلف، قال له: "من أين أتيت؟" قال: "من مكان يُتلى فيه كتاب الله"، قال: "أولله كلام

يُتلى؟! "يعني شيءٌ عظيمٌ، شيءٌ عظيمٌ وأنت في الأرض، أن تقرأ كلام الله الذي تكلم به. لكن نعود مرة أخرى ونقول: المشكلة في الإيمان.

إِذَا اتَّفَقْنَا على أن الإيمان إذا استولى على جذر القلب، بعثه للأخذ بالكتاب والسنة، وجعل الكتاب والسنة أمام عينيه أنهم أحسن الحديث وخير الهدي، هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ننتقل للحديث التالي:

• حدثنا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا الزُّهْرِيُّ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: **"لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ"**.

سأشير فقط إشارة إلى هذا الحديث وغداً نبينه أكثر:

هذا الحديث له قصة، وقصته تتصل بالحكم، غداً تبين لنا القصة، لكن الناتج الذي نريده الآن في كتاب الاعتصام أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **(لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ)** وليس المقصود أبو هريرة وزيد بن خالد، أبو هريرة وزيد بن خالد في السياق، إنما راويان للحديث، القصة فيها حدث وقضاء نهايتها، النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **(لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ)**.

إذاً هذا معناه: أن السنة يُطلق عليها كتاب الله؛ لأن الرسول هو من حكم؛ ولذلك حينما تعرف عن أحد أنه على منهج السنة، ثم يأتي يقول

لك: "نحن لا بد أن نرجع لكتاب الله، ولا بد أن نهتم بكتاب الله"، تفهمين أنه يقصد الكتاب والسنة، فكل مرة سنقول: "كتاب الله" يعني أننا نقصد الكتاب والسنة، ردًا على القرآنيين الذين ينظرون إلى القرآن على أنه مصدر تشريع ويتجاهلون السنة!

وأنتم سمعتم ولوّثت آذانكم بكلام من لا يفقه، وله حظ ونصيب في أن يكون عدوًّا للإسلام! سواء كان يعلم أو لا يعلم! كونه يقلل من شأن السنة وكونه يطعن في البخاري، من أين أتى بهذه الأحاديث؟ أنتم الآن لو أتى عامل يعمل في الحديد، يعني صناعة الحديد، هل تستطيعون أن تأتوا له بقطعة ذهب وتقولون له: "قل لنا، هل هذه ذهب أو لا؟" تأتي لحداد وتسأله عن الذهب! خطأ! هذه الأحاديث والنصوص والرجال مثل الذهب، ما يعرفها إلا أهل الذهب، أما يأتيني مجرد كاتب أو قارئ يقرأ، ويطعن! هذا ما له قيمة!

البخاري لما جمع أحاديثه كان يحقق حديث للنبي -صلى الله عليه وسلم-: «لو كان الإيمان عند الثريا، لتناولته رجالٌ من فارسٍ»^(١)

قال أهل العلم: "الإيمان يعني العلم"

ثم أن إيماننا أن الله يحفظ الكتاب، معناه إيماننا أن الله يحفظ السنة والله -عزّ وجلّ- قادر على حفظ السنة، أين الشيء المشكل؟! ثم

(١) أخرجه البخاري (٤٨٩٧).

أن الذي يعرف تاريخ البخاري، يعرف أنه ستة عشر عامًا بقي يجمع هذه الأحاديث ويرتجل ويستخير مع كل حديث يضعه، ثم يظهر فقهه بعد ذلك. لكن ما رأيكم حين ينتقد أحد كتابًا، قد يكون عمره ما فتحه؟! أو يقبل أن يسمع نقدًا في كتاب عمره ما رآه بعينه؟! هذا الحال الذي نحن فيه.

إذا كتاب الله يتضمن سنّة النبي -صلى الله عليه وسلّم-، ونحن -الحمد لله- مطمئنون لسنّة النبي -صلى الله عليه وسلّم-، مطمئنون لحفظ الله لها، ونرى أن الله -عزّ وجلّ- قد منّ علينا بذلك، ونحمد الله -عزّ وجلّ-، ومن حمد الله؛ زاده الله -عزّ وجلّ- علمًا.
السلام عليكم ورحمة الله

اللقاء الثالث

تابع بَابُ الإِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمداً كثيراً طيباً مباركاً، ونسأله بمنه وفضله أن يجعلنا ممن دخل مدخل صدق وخرج مخرج صدق، وأن يجعل لنا على أنفسنا سلطاناً نصيراً، اللهم آمين.

هذا مجلسنا الثالث الذي نتدارس فيه **كتاب الاعتصام**، نسأل الله أن يجعله فاتحاً لخير وفاتحاً لاعتصام بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

كنا قررنا مسائل كثيرة بداية الكتاب، ومن أهم المسائل معنى **كلمة الاعتصام** وهي بمعنى: **التمسك**، وليس أي تمسك، وإنما هو تمسك من يعلم أنه بمثابة الغريق، الذي تحته بحرٌ لَجِيٌّ، يحتاج أن يتمسك بهذا الحبل لئلا يغرق؛ ولذا يقول الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا

تَفَرَّقُوا ﴿١﴾ فمعنى ذلك أن القرآن والسنة حبل الله، مُدٌّ للخلق من السماء، **ماذا تحت هؤلاء الخلق؟ بحرٌ لَجِيٍّ**، ويراد منهم التمسك بهذا الحبل؛ من أجل ألا يغرقوا، الغرق في الفتن وفي المعاصي والشهوات.

كنا اتفقنا في مطلع الكتاب على أسباب الاعتصام بالكتاب والسنة، وأن هذا الكتاب الله -عزَّ وجلَّ- (أكمّله)، و(أتمّه)، و(رضيه).

واتفقنا على أن هذا الكتاب هو الذي هدى الله به رسوله -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وإن هذا الكتاب إنما الوصول إلى حقيقته يكون عن طريق التعلّم؛ ولذا النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- دعا لابن عباس، وعرفنا أن هذا الكتاب وهذه السنة، هما اللذان كانا سببًا لانتعاش المسلمين، ومن ثمّ هذا كلام أبي بَرزَةَ -رضي الله عنه-: **"إِنَّ اللَّهَ يُغْنِيكُمْ - أَوْ نَعَشَكُمْ - بِالْإِسْلَامِ وَبِمُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-** ﴿٢﴾ فبالإسلام والإيمان وليس بغيرهما ينتعش المسلمون.

(١) آل عمران: ١٠٣.

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٧١).

ثم أتى الباب الأول ووصف ما هو الكتاب والسنة، قال: **بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ"**، وأورد حديثاً آخر، قال فيه النبي: **(وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ)**.

معنى ذلك أن الذي آمن عليه الخلق في رسالة النبي -صلى الله عليه وسلم- هو هذا الكتاب، وهذا الكتاب وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، صفتها أنهما من: **جوامع الكلم**. أي: كلمات قليلة، فيها معاني غزيرة. وإذا كانت كذلك، فما هو الخبر الذي يجب معرفته؟ أن تعرف أن الله -عز وجل-، جمع أموراً كثيرة تحتاجها، في كلمات قليلة، **والمطلوب منك: الاجتهاد مع القرآن والسنة حتى تصل بهما إلى النجاة.**

هذا التقرير يبين: أنه لا نجات لك إلا بالكتاب والسنة؛ لأن فيهما كل ما تحتاجه. لكن كيف ستفهمهما؟ نأتي لأزمة التعامل.

التعامل بمعنى: أن كل شخص -خصوصاً في هذا الزمان- قرأ وكتب، هو لا يفهم مما يقرأ أو يكتب أكثر من الكلمات التي يقرأها! وربما حتى الكلمات التي يقرأها لا يفهمها! وأسأل كثيراً من المتعلمين فيما يقرأ في كتاب الله عن معنى اسم الله السلام أو المؤمن أو الصمد أو معنى سورة الإخلاص أو البينة، ترى أن الخلق يقولون بألسنتهم ما لا يفهمون! وإن

فهموا يكون فهمًا سطحيًا، ومع ذلك كل شخص يرى عقله العقل النافذ في النصوص! وتراه يقول: "هذا رأي" أو "وجهة نظري"! وهذا نتيجة ما فعلوه فينا من تعظيم الذات، ومن جعل هذه الذات تستطيع وتقدر، وكل الناس أذكىء ولهم قدرة على مسابقة أهل العلم المتخصصين! إلى أن أصيبت الأمة في مقتل وهو **التعالم**. وأصبح بإمكان أي أحد أن يتناول الكتاب والسنة، ولا حامي لهما من الخلق! وتسمعون الشيء الكثير مما يتناقله الناس -خصوصًا في المقاطع-! مثلًا نحن نقول في افتتاح الصلاة: "... **وتعالى جَدُّكَ**"^(١) و**(الجدُّ)** في لغة العرب بمعنى: العظمة. فيأتي من يقول: "خطأ ما تقولون! الجد هو أب الأب"! وهذا صحيح، لكن المعنى المقصود هنا: العظمة. ولذا تقرأ في سورة الجن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾. يعني: تعالى مجد ربنا. فالمقصد أننا نتعرض اليوم لمشكلة كبيرة، وحتى عندما تحصل حالة من الاهتمام بالكتاب والسنة، تحصل وأصحابها موصوفون بالتعالم، وكنا ناقشنا أمس سورة الأعراف سريعًا، وعلمنا أن التعالم والقول على الله بلا علم،

(١) أخرجه الدارقطني(١١٤٥).

في أحسن أحواله في درجة الشرك! معنى ذلك أنه خطر عظيم أن تقول
على الله بلا علم.

والمطلوب منك:

- الاعتصام بالكتاب والسنة؛ لأن فيهما **جوامع الكلم**، كلام قليل وفيه
معانٍ غزيرة.

والحل للوصول إليهما: أورده البخاري في الباب التالي مباشرة: **بَابُ
الإِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-**.

معنى ذلك: وأنت تفهم الكتاب والسنة، ستفهمهما وأنت مقتديًا بسنن
رسول الله. وهذا الباب من أحسن ما عُقد في هذا الكتاب؛ لأنه يبين لك
الطريق تمامًا، فأول ما بدأ فيه قال:

بَابُ الإِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، قَالَ (١): أئِمَّةٌ نَقْتَدِي بِمَنْ

قَبْلَنَا، وَيَقْتَدِي بِنَا مَنْ بَعْدَنَا.

فالآن من يريد أن يرشد المؤمنين للطريق المستقيم، في حقيقته هو يريد
أن يكون إمامًا للمتقين، ونبهنا أنفسنا على هذا التنبيه المهم: أن هؤلاء

(١) مجاهد.

يريدون أن يكونوا للمتقين إمامًا، لكن ليس من باب الكبر، بالعكس، بل من باب الذل؛ لأنهم يقع في قلوبهم حرارة حب الله، وتعظيم الله، والخوف على حرمة الله، ويزعجهم الكلام في دين الله بغير علم، ويزعجهم التعدي على دين الله، فهؤلاء يريدون أن يقودوا الناس للطريق المستقيم، ولاحظ أن هذه الآيات في سورة الفرقان التي في مطلعها قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، وهذا دليل على أنهم في غاية الذل، ولا يسمحون لأقدامهم أن تسير سيرًا فيه دليل على تكبر قلوبهم، فمن المؤكد أنهم عندما أرادوا أن يكونوا للمتقين إمامًا، إنما أرادوا ذلك نصرة لدين الله وليس نصرة لأنفسهم.

الشاهد: أن البخاري عندما أورد هذه الآية ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ وصف الطريق، كيف تكون للمتقين إمامًا - ترشدهم للصواب، سواء كان المتقين هم أهل بيتك، أو المجتمع الإسلامي الذي تحت قيادتك، سواء كنت معلمًا أو مديرًا أو المجتمع الإسلامي المفتوح-؟ (قال^(١): **أئمةٌ نقتدي بَمَنْ قَبْلَنَا، وَيَقْتَدِي بِنَا مَنْ بَعْدَنَا.**) وهذه الجملة في غاية من الأهمية، أنت

(١) مجاهد.

لست مقطوع النسب، أنت لا تخترع اختراعًا! بل ترشد من أردت إرشاده، بناء على ما أرشدت أنت إليه من قبل من قبلك، فلا يوجد انقطاع، أنت في الوسط وتنظر لمن قبلك، (أئمةً نقتدي بمن قبلنا، ويقتدي بنا من بعدنا.) وتبقى السلسلة ما تنقطع، وهذا في الحقيقة هو معنى السلفية، (السلفي) هذا شخص ينظر لمن سلفه، ويفعل مثل فعله، ويأتي من ورائه يفعل مثل فعله ويبقى التسلسل. فالسلفية ليست دعوة، وليست كلام يُقال ولا شرفًا يتكلم به من يستحق ومن لا يستحق، بل السلفية منهج يسير عليه الخلق.

ثم أتى في العنوان وقال كلام مهم وهو كيف أصل لأكون للمتقين إمامًا؟ فأتى بكلام ابن عون وهو تابعي صغير قال: (ثلاث أحبُّ لنفسي ولإخواني: هذه السنة أن يتعلموها، ويسألوا عنها): بدأ بالسنة قبل القرآن لأنها هي التي تحتاج إلى بحث وتحتاج إلى فهم وتعلم.

(والقرآن أن يتفهموه ويسألوا عنه): لم يقل (يتعلموه)، قال: (يتفهموه).

(وَيَدْعُوا النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ). هذا منهج، وليس كلما خاضوا، خُضت معهم، ومسألة الخوض مقصودة، فيما مضى قبل أن تأتي هذه الفتن العظيمة، كان الجماعة الذين فُتنوا بالغرب والشرق، يكتبون مقالاً في الجريدة، ثم يرد الثاني، والثالث يؤيده، وهذا يقبل منه! والقراء يبقون فترة من الزمن يدور عقلهم حول هذا الكلام! ثم تبدأ في الشهر التالي فتنة جديدة! فيبقى الناس بدلاً من أن يطلبوا العلم ويصلوا لربهم، يدورون في هذا الأمر! فليس مطلوب منك الخوض في كل أمر سياسي، اقتصادي، اجتماعي! وعندما يأتي الحج مثلاً ترى كيف يضيّع الناس حجّهم، كل كلامهم عن التدافع، عن القطار، فجأة أصبحوا مخطّطين، ووزراء مواصلات، واتصال! وكله تحت عنوان: (لا نكون مغفلين)! وهذا حقيقة تغفيل الشيطان؛ لأن لكل عبد في كل زمن وظيفة، أنت تكون مغفلاً، يعني أغفلك الشيطان، عندما تضيّع وظيفة الوقت، يعني يوم العيد وظيفة الخلق: أن يكبروا ويهلّلوا، وعندما يأتي على المسلمين ما يؤذيهم، فالوظيفة: الإيمان بالقضاء والقدر، وقول: "إنا لله وإنا إليه راجعون"، فهناك وظائف كثيرة نقوم بها، غير أن نتكلم فيما لا يعيننا!

المقصد: (وَيَدْعُوا النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ) معناها: قم بوظيفتك التي تناسبك.

وهذا شأن عظيم ومهم؛ لأن الناس مشغولون عن العلم وعن فهم القرآن والسنة؛ لأنهم مشغولون بما يشغلهم به الشيطان. والشيطان له أعوان، وأعوانه صارت بين أيدينا، وانظر عندما يُرسل لك أحد مقطعاً، وآخر يرسل لك مقطعاً؛ فيتشتت قلبك! فهذا كله يحتاج إلى إعادة نظر في حالنا.

الشاهد: القرآن والسنة يحتاجان إلى قلب فارغ لهما، لا إلى قلب قد شتت نفسه، يحتاجان كل قوتك وطاقتك وفهمك ونباهتك وتركيزك من أجل أن تنجو، والله -عز وجل- يقول: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾^(١) تخيل ساعتك أو يومك، كأنك تحمل زادك وتملاً به جرابك. إذا من يريد أن يعتصم، لابد أن يفهم، ومن يريد أن يفهم ينظر لمن سبقه كيف فهم، ويفهم على فهمه، وهي ثلاثة أمور:

١. السنة نتعلمها ونسأل عنها.

(١) البقرة: ١٩٧.

٢. والقرآن نتفهمه ونسأل عنه.

٣. وأن ندعُ الناس إلا من خير.

بقي أن يرزقنا الله -عزَّ وجلَّ- من يساعدنا على فهم السنَّة وعلى تعلمها، ويرزقنا من يساعدنا على تفهم القرآن على منهج من سلف.

ثم أورد أحاديث، كلها خرجنا منها بنتيجة واحدة: **أن المطلوب منا ألا نتعدى سنن النبي -صلى الله عليه وسلم-** ، فقد أورد كلام عمر -رضي الله عنه- في الحديث:

• حدثنا عمرو بن عباس، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن واصل، عن أبي وائل قال: جلستُ إلى شيبَةَ في هذا المسجد، قال: جلسَ إليَّ عمرُ في مجلسك هذا، فقال: هممتُ أن لا أدعَ فيها صفراءَ ولا بيضاءَ إلا قسمتُها بينَ المسلمين، قلتُ: ما أنتَ بفاعلٍ، قال: لِمَ؟ قلتُ: لِمَ يفعلُهُ صاحبك، قال: **هُمَا المرءانِ يُقتدى بهما.**
يقصد النبي -صلى الله عليه وسلم- وأبو بكر.

لنركز في أصل مسألة ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾: الآن عمر للمتقين إمامًا ماذا فعل عندما ناقش شيبَةَ؟ قال: **(هُمَا المرءانِ يُقتدى بهما)** فتصور عمر يقف هنا، وأبو بكر والنبي -صلى الله عليه وسلم- يسبقانه،

عينه على النبي وأبي بكر، والناس وراؤه يقتدون به، فهو إمام يقتدي بمن قبله ويقتدي به من بعده، وهذا هو الطريق.

أتى بعد ذلك كلام حذيفة الذي نقل فيه حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-:

• حدثنا عليُّ بنُ عبدِ الله، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: سَأَلْتُ الْأَعْمَشَ، فَقَالَ: عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهَبٍ، سَمِعْتُ حُذَيْفَةَ يَقُولُ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ فَقرءوا الْقُرْآنَ، وَعَلِمُوا مِنَ السَّنَةِ.
(الأمانة) بمعنى الإيمان.

(نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ) في أصل قلوبهم، أي وافقت فطرتهم.

(وَنَزَلَ الْقُرْآنُ فَقرءوا الْقُرْآنَ، وَعَلِمُوا مِنَ السَّنَةِ) فهمنا من هذا النص أن الإيمان لما دخل في فطر الخلق، دفعهم للتعلم، فإن أردت أن تمنع الناس من الابتداع، أو تمنع نفسك من الاختراع، تقول: الله أرسل رسوله بالحق، وأكمل الدين وأتممه ورضيه، فلا تعدي على الدين، بقي أن تفهم هذا الدين، ليس دورك الاختراع أو التعدي، أو تأتي بما لم يأت به

الأولون، بل نحن إن درسنا ما أتى به الأولون ستفنى أعمارنا ولم ننته من دراسته، لكننا لم نعط أنفسنا فرصة لهذا؛ بسبب إحساسنا أن عقولنا مقدمة على النص؛ لذلك تجد من يقول: "أشعر أن الحكم كذا"! الدين لا يوجد فيه شعور، بل فيه نصٌ صحيحٌ، وفيه كلامٌ لأهل العلم قطعيٌ، خصوصًا أننا الآن نسمع من يقول: "أنا أرى أن هذا حكمه حلال"! على أن رأيه يجب أن يُعتدَّ به! وهذا الكلام لا يتصوره إلا من يحتك بالشباب ويسمع كلامهم، سيفهم أنهم يفكرون بهذه الطريقة ويرون أن آرائهم مقدرة، لكن من دخل الإيمان في قلبه وعظّم الكتاب والسنة، سيبدل جهده في فهمها. وهذا الكلام يشبه كلام جندب -رضي الله عنه- عندما قال: **(فتعلّمنا الإيمانَ قبلَ أن نتعلّم القرآنَ) فماذا حصل؟ عظّموا الله، عظّموا القرآن والسنة.**

(ثمّ تعلّمنا القرآنَ فزدنا به إيمانًا).

لكن يؤخذ القرآن، ويكون على اللسان، ويرى الإنسان أنه أعلم العلماء وأفهمهم، ويقول: "إذا كان الإمام أحمد رجلاً، فنحن رجال"! فهذه قضية التعامل الخطيرة.

علمنا أيضًا كلام عبد الله بن مسعود:

• حدثنا آدم بن أبي إياس، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، أَخْبَرَنَا عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ، سَمِعْتُ مُرَّةَ الْهَمْدَانِيَّ يَقُولُ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَ ﴿إِنَّ مَا تُوَعَّدُونَ لِآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

وفهمنا من ذلك أنه لا يراه أحسن الحديث ولا أحسن الهدى إلا من وقع في قلبه الإيمان.

ثم أتانا هذا الحديث الذي كان النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فيه قاضيًا في مسألة وحصلت في بوادي المدينة:

• حدثنا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا الزُّهْرِيُّ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: "لِأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ".

القصة: أن شابًا كان يرعى لرجلٍ، ثم وقع على ابنته، ثم لم يقضوا له بحكم الزنا الذي نزل في كتاب الله، إنما حكموا على الشاب أن يعطي هذا الرجل الذي وقع على ابنته عددًا من الإبل، ثم حصل أن ذهب هذا

الرجل للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقال النبي: **(لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمْ بِكِتَابِ اللهِ)** يعني بين الرجل والد الفتاة، وبين والد الشاب.

القصة لم ينقلها البخاري لأنه هنا يريد **الشاهد**، وهو: أن سنة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تسمى (كتاب الله)؛ لأن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ما قال: "سأحكم بسنتي"، إنما قال: **(لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمْ بِكِتَابِ اللهِ)** يعني هو الفاعل. إذا السنة يُطلق عليها كتاب الله؛ لأنها وحي من عند الله.

نتقل للحديث التالي:

• حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ سِنَانٍ، حَدَّثَنَا فُلَيْحٌ، حَدَّثَنَا هِلَالُ بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: **"كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبِي"** قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ يَا أَبِي؟ قَالَ: **"مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبِي"**.

← هذا الحديث كثير ما نسمعه، فيه قول النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

وسلم:- (كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبِي).

و(أمة النبي) المقصود بها: أمة الدعوة، يعني منذ أن أرسل النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عليه وسلم- والعالم كله يُعتبر أمة له، مسلمهم وكافرهم، فالذي يستجيب منهم يسمى (أمة الإجابة) ومعنى ذلك أن الإسلام لا يخص

العرب كما يظن بعض الخلق، وإنما أرسل النبي للناس كافة. فكل الناس تعتبر أمة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

يقول: **(إِلَّا مَنْ أَبِي)** أي: إلا من امتنع باختياره، امتنع من قبول الدعوة أو امتثال الأمر.

(قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَا أَبِي؟ قَالَ: "مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبِي".) هذه الجملة من الحديث ستبين بوضوح بالحديث التالي وهو مثل ضرب للنبي -صلى الله عليه وسلم-:

• حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبَادَةَ خَبَرَنَا يَزِيدُ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَيَّانَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ مِينَاءَ حَدَّثَنَا - أَوْ سَمِعْتُ - جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: جَاءَتْ مَلَائِكَةُ إِلَى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- وَهُوَ نَائِمٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: إِنَّ لِرَّسَالِكُمْ هَذَا مَثَلًا فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلًا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً، وَبَعَثَ دَاعِيًا فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ الْمَأْدُبَةِ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْمَأْدُبَةِ، فَقَالُوا: أَوْلَوْهَا لَهُ يَفْقَهُهَا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ

وَالْقَلْبَ يَقْضَانُ، فَقَالُوا: فَالِدَّارُ الْجَنَّةُ، وَالِدَّاعِي مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمُحَمَّدٌ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَرَقٌ بَيْنَ النَّاسِ.

تَابِعَهُ قُتَيْبَةُ، عَنْ لَيْثٍ، عَنْ خَالِدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هَلَالٍ، عَنْ جَابِرٍ: خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

← هذا الحديث فيه مثل ضرب للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، كأن فيه بيان لقول الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) نقرأ الحديث جملة جملة، ونفهمه.

(جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: جَاءَتْ مَلَائِكَةٌ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ نَائِمٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ).

الآن الحديث سيكون حديث الملائكة والنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نائم.

(١) الأنبياء: ١٠٧.

(وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ): والمقصود أن النبي -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هذه صفته عينه تنام وقلبه يقظ في ذكر الله وفي
استقبال الوحي.

(فَقَالُوا: إِنَّ لِصَاحِبِكُمْ) المقصود النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.
(هَذَا مَثَلًا فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلًا) يعني الملائكة تقول لبعض: "إن لصاحبكم
مثلاً، فاضربوه ليظهر له المعنى".

(فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ
يَقْظَانُ): يعني اضربوا له المثل، فإن قلبه يقظ، سيفقه المثل.
(فَقَالُوا: مَثَلُهُ): يعني صفته.

(كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدِبَةً، وَبَعَثَ دَاعِيًّا): إذا الصورة
تتكون من ثلاثة عناصر:

١- رجل.

٢- دار ومأدبة.

٣- داعيًّا.

الرجل بنى دارًا، وجعل فيها مأدبة، وبعث داعيًّا يدعو لدخول الدار
والأكل من المأدبة. الناس الداعي بالنسبة لهم، يدلهم على الطريق، هم لا

يعلمون الدار ولا طريق الوصول لها، يعني كأنك تتخيل بلدًا، وفي طرفها البعيد بني غنيّ دارًا، ووضع فيها مأدبة، وأرسل داعيًا، الناس لا يعرفون طريق الدار، فلا بد أن يصلهم الداعي، وهم يسرون وراءه.

(فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ، دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ المَأْدُبَةِ): يعني سار وراءه.

(وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ المَأْدُبَةِ):

- يعني لم يصدق أن هناك دارًا.

- أو إنه سار قليلًا واستثقل الطريق.

- أو إنه وهو سائر ناداه أحدهم، فضل الطريق! قد يكون سار

واجتهد ثم رأى رأيًا على الداعي، فترك طريقه وقال: "هناك طريق

أقرب يوصل للدار" فترك السير وراء الداعي!

لا بد أن نتصور المثل جيدًا؛ لنتصور علاقتنا بالنبي -صلى الله عليه وسلم-

وهذا واضح جدًا في حملات الحج، يأتون ويخرجون الناس من منى إلى

عرفة، ففي هذا التفويج -حتى من يعرف طرق عرفة ومهما كان هناك من

تركيز- إلا ويتوه الناس، فلا بد للشخص لكي يصل لمكان حملته في عرفة

أن ينتبه لمن يحمل الراية، وإلا سيتوه ويبحث عن حملته تحت حرارة

الشمس.

فنتصور المسألة، بُنيت الدار ووُضع فيها مأدبة وأُرسِل الداعي، عندما أُرسِل الداعي، كانت الناس بين كسلان، وبين مكذب وبين مقترح وبين من يرى أنه فهم يعرف الطريق! وثلة من بين هؤلاء تركت الكسل وتركت الاقتراحات وصدقت وسارت وعينها على الداعي، لا تقترح عليه أي اقتراح. فهؤلاء يُرجى لهم أن ينجوا. يعني لا ينجو إلا من أطاع الداعي، ولم يخرج عن سيره.

ثم قالت الملائكة: (أَوَّلُوهَا لَهُ يَفْقَهُهَا) أي: فسروا له المثل.

(فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَحْضَانُ، فَقَالُوا: فَالِدَارُ الْجَنَّةُ، وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَدْ عَصَى اللَّهَ).

فالدار الجنة، والداعي محمد، وفي بعض الروايات أن صاحب الدار هو الله -سبحانه وتعالى- ومعلوم من الفهم إذا كانت الدار الجنة فصاحبها هو الله -عز وجل-.

(وَمُحَمَّدٌ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَرَّقَ بَيْنَ النَّاسِ فِي رِوَايَةِ فَرَّقَ) يعني الناس قبل أن تُعرض عليهم سنة النبي ودينه، كلهم في حال دعوى أنهم

يريدون الخير والصلاح والنجاة، عندما تأتي سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- ماذا يحصل؟ **يُفرّق بين الناس**، بين المجتهد وبين من يرى رأيه مقدّمًا على سنة النبي. ونحن في وقتنا هذا، من سنرى في الطريق؟ هل سنرى محمد -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه والتابعين؟ اتفقنا أن قوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، يعني أئمة، نقتدي بمن قبلنا، ويقتدي بنا من بعدنا، تصور الطريق، بديته النبي -صلى الله عليه وسلم- ويسير خلفه الصحابة، (**هُمَا الْمُرءَانِ يُقْتَدَى بِهِمَا**) عمر يسير وعينه على النبي وعلى أبي بكر، وهكذا، ونحن بالنسبة لنا تكون أعيننا على من عينه على من قبله، وهكذا ينجو الإنسان، أن يسير في طريق، يعلم أن هؤلاء يرون سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا تصوره جيدًا في حملة الحج، أنك لا ترى صاحب الراية لكن ترى واحدًا أو اثنين ممن يسرون معك، فتنظر لمن حولك فتطمئن وتسير معهم، فليس شرطًا أن ترى حامل الراية بعينك، بل يكفي أن ترى من يرى حامل الراية. وهذا رأس الأمر، أننا نسير إلى الدار وأنت في طريقك سائرًا، لابد أن تتأكد أنك ترى من يرى حامل الراية- الداعي-، يأتي أشخاص في الوسط، والناس سائرون إلى ربهم -وهذا الذي حصل في العالم الإسلامي، بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم-

عليه وسلّم- بفترة وجيزة، يأتي الخوارج- ويخرجون عن الطريق! وهذا النقاش لا علاقة له بالتكفير وعدمه، لكن كلامنا عن السير الصحيح، فماذا يحصل لمن ورائهم؟ من ورائهم يكونون سائرين في الطريق الصحيح ويأتون لهذا المأزق، فيرون هذا مخرجًا، وهذا طريق يتابع النبي، فتختلط عليهم الأمور فيخرجوا من المخرج! ثم أتى بعدهم بزمن المعتزلة والجهمية في عقيدتهم في أسماء الله ثم الأشاعرة، ثم ماذا يحصل؟ بعد أن كان الناس سائرين، يذهبون يمينا أو يسرة، والداعي أمامهم على الطريق المستقيم! لكنهم لم يقتدوا بمن أمامهم، أخذتهم الطرق؛ ولذا هذا كله يجتمع في صدق طلبنا من ربنا في الفاتحة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أن يكون عندي إحساس حقيقي بهذا المثل الذي ضرب، أننا نسير إلى الدار وإلى المأدبة وإلى ربنا والنبي -صلى الله عليه وسلّم- الداعي، والنبي -صلى الله عليه وسلّم- فرّق بين الناس، يعني الصادق سيظهر، وهناك كسالى سائرون في الطريق، لكن لا بأس كما قال الشافعي: "سيروا إلى الله عُرْجًا ومكاسير" حتى إن كنت كسلان، لا بأس لكن كُنْ على الطريق، حتى إن كنت بطيئًا، أو كسلان، كن على الطريق، ابق رائيًا للداعي، المهم أن ترى الداعي، وعلى ذلك هذا الحديث وضح تمامًا معنى كلام مجاهد: (أَيِّمَةٌ

نَقْتَدِي بِمَنْ قَبْلَنَا، وَيَقْتَدِي بِنَا مَنْ بَعْدَنَا.، يعني أنت لا تستطيع أن ترى النبي ولا الصحابة الكرام ولا التابعين ولا تابعي التابعين، لكنك ترى من يراهم، ومن بعدك يرى من يراهم، وهكذا إلى أن ينجوا المسلمون، وهذا لا يحتاج فقط إلى طلب وعلم واجتهاد بل يحتاج إلى ما هو أقوى من ذلك، ألا وهو **الاستغاثة**، أن تكون حقيقة ترى أنك في هوة، وتحتك بحر لجي وقد تنحرف في أي لحظة؛ ولذا عندما تسمع قول النبي: **«يا مقلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»**^(١) تعلم ما هو الخطر، لكن بما أننا نشعر بمشاعر الأمان تجاه عقيدتنا، وأنا أهل التوحيد، وموحدون وبعيدون عن الشرك، فهذه مشاعر الأمان هي التي تخطف الخلق إلى الباطل دون أن يشعروا! وأود أن أنبه نفسي وأنبهكم إلى أن الشرك والشعوذة والكهانة، تأخذ كل زمن صورة أهل الزمن، يعني منذ زمن كان المشعوذ أو الكاهن في مكان مظلم، لكن الآن له مكتب وبريد إلكتروني وتصل له عن طريق النت! كان الشرك عبارة عن أصنام في أماكن معينة، واليوم أصبحت حجارة فاخرة وحولها طاقة، وتعلقها وتأتي لك بالخيرات، وإن وضعت في

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤٠).

زوايا معينة تصرف عنك الشرور! نفس الأمر لكنه تطور! وتصور «أنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- رَأَى رَجُلًا بِيَدِهِ حَلْقَةً مِنْ صُفْرِ فَقَالَ: مَا هَذِهِ؟ قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ، قَالَ: **انزَعَهَا فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا وَلَوْ مُتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ**»^(١)، حلقة من نحاس يلبسها لترد عنه مرض الوهن، قال: **(انزَعَهَا فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا وَلَوْ مُتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ)**، هذا كلام واضح، سواء كان نحاسًا أو غيره، فهذا يشبه كل ما يقال الآن، لكن الأمر أخذ صورة جديدة، لكنها لنفس الأزمة التي نعيشها، فمن أين نُخطف؟ من الأمن، عندما نشعر أنه لا أخطار حولنا نُخطف، ما الحل؟ نخاف؛ فنستغيث، نخاف؛ فننتعلم.

هذا الحديث دلالة واضحة وله علاقة بالحديث السابق: **(مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى):**

يعني عندما أتى التمثيل بأن الرسول داعٍ ويدعو، فتبين أن من يطيع النبي ويسير في سيره ويلزم غرزه، يدخل الجنة، ومن يذهب يمينا أو يسرة يذهب! سيأتي الآن كلام واضح جدًا لحذيفة يزيد الأمر بيانًا.

(١) أخرجه أحمد (٢٠٠٠٠).

• حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن همام عن
عَنْ حُدَيْفَةَ قَالَ: "يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا، فَقَدْ سُبِقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا،
فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا".

← هذا كلام من حذيفة كأنه رُكِبَ على المثل تمامًا.

هو يخاطب معشر القراء، والقراء عند حذيفة غير قراء اليوم، قراء
اليوم: من يجيدون القراءة، لكنه يقصد بالقراء في زمنه: من معه علم.
قال: (يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا، فَقَدْ سُبِقْتُمْ): هناك قراءتان لهذه
الكلمة (سُبِقْتُمْ أو سَبَقْتُمْ) نبدأ ب (سَبَقْتُمْ) يعني أنتم في الأمام (سَبْقًا
بَعِيدًا) الناس يرونكم، ويضعون أعينهم عليكم ويتابعوكم.
(فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا) المفترض كانوا لابد أن يأخذوا الطريق
المستقيم الذي هو خلف النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فهو يقول: "قد
سبقتكم سبقًا بعيدًا" في كونكم رأيتم النبي وعرفتم سنته وتبينت لكم،
فأنتم تسرون وراءه والناس خلفكم ينظرون إليكم (فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا
وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا) لماذا بعيدًا؟ لأنكم ابتعدتم عن السنة
ولأنكم أبعدهم من ورائكم.

لو كانت الكلمة (**سُبِقْتُمْ**) فكأنه يقال: "لا تخترعوا، فقد سُبِقْتُمْ بمن قبلكم"، ليس المطلوب أن تخترعوا بل أن تتابعوا، وإذا ضللتكم يمينًا أو شمالًا وأخذتكم الأهواء، فقد ضللتكم ضلالًا بعيدًا؛ لأنكم تفتنون من ورائكم، وهذا كله يصب في أول الكلام: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، أئمة نقتدي بمن قبلنا ويقتدي بنا من بعدنا.

فكلنا في مجال التربية أو تعليم الأبناء أو مجال التوجيه لابد أن يكون هذا طريقنا، نقتدي بمن قبلنا ويقتدي بنا من بعدنا، ومعشر القراء المقصود بهم العلماء وكل من يواجه مسألة الإرشاد والبيان والحق في أي وسط كان، سواء في عائلته أو المجتمع.

ننتقل لمثل آخر ضربه النبي لنفسه يقابل المثل الأول، المثل الأول كان داعيًا للدار وإلى المأدبة، سنرى الآن النبي -صلى الله عليه وسلم- كيف ضرب لنفسه مثلًا.

• حدثنا أبو كُرَيْبٍ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ بُرَيْدٍ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: "إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعَيْنِي، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالْتَجَاءُ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا

عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ
الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاكَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ،
وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ"

الآن الشاهد واضح، هناك كان مُثَل النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأنه
الداعي إلى الدار وإلى المأدبة، وهنا مُثَل النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
بالنذير العريان، وهذه القصة معروفة عند العرب،

ويطلقونها على رجل بعيدًا عن قبيلته، ورأى جيشًا، والذين أرادوا
الهجوم، جرّده من ثيابه، فعندما أقبل على قومه عريان، علموا أنه لا
يمكن أن يفعل به هذا الفعل به إلا العدو، فتنهوا من بعيد، وبدؤوا
يجمعون العدة ويرحلون.

وقيل إنه عندما يرى الجيش، يخلع هو ملابسه ويشير بها؛ ليفهموا من
هذه الإشارة أن وراءه الجيش؛ فيستعدوا قبل أن يصلهم.

المقصد: أن بينهم مسافة وهي كافية لأن يجمعوا متاعهم وابدؤوا في
الارتحال.

فالناس انقسموا حوله إلى قسمين، قال الرسول: **(إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنِي، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ)** يعني كان المفترض أن يصدقوه.

(فَالنَّجَاءُ) يعني استجابوا لي لتنجوا.

(فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا) يعني ساروا في الليل، أول ما وصلهم الخبر، لم ينتظروا ويفكروا، وإنما استجابوا وأدلجوا في ليلهم. **(فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ)** نرى صفاتهم الآن عندما أدلجوا في الليل انطلقوا على مهل يعني ساروا بهدوء، فلم تنقطع أنفاسهم ولم يصبهم الخوف، إنما كان الأمر واضحًا بالنسبة لهم، ويسIRON على مهل. النتيجة: **(فَنَجَّوْا).**

لكن الصنف الثاني كذبوا: **(وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَا حَهُمْ)** والناس هكذا في إنذار النبي -صلى الله عليه وسلم-، في إنذاره لهم بما سيكون عند الموت، بما سيكون في القبر، بما سيكون في العرصات، بإنذاره لهم بما سيكون في الجحيم -نعوذ بالله من النار-! يعني يبدأ يجتاحهم الجيش من أن تقبضهم ملائكة

العذاب، إلى أن يذوقوا النار، وهذا الجيش قد اجتاحتهم؛ والسبب: أنهم أصبحوا في مكانهم، والسبب: أنهم كذبوا.

معنى ذلك: أن من صدّق النبي مباشرة؛ سينفعل و سيرحل، هؤلاء الآن ما رحلوا، تصورها في الدنيا، من صدّق النبي -صلى الله عليه وسلم-، جمع فقط ما يحتاجه وسار، والآخر الذي لم يصدق النبي، ما رضي أن يترك دنياه ولا متاعه، فبقي في مكانه وما أراد أن يرتحل. على تفكيره أنه ستنتفعه دنياه، ويبقى مستمتعاً بها! وذاك فهم أنه خذ ما تحتاجه، فنجاة نفسك أهم من باقي الأشياء. وهذا بالضبط تصور الناس تجاه الدنيا، من ينظر لها على أنها رحلة ويأخذ منها ما يحتاجه، هذا سيستجيب لأوامر النبي، ويسارع في الرحيل ويعلم أنها رحلة ولا يثقل ظهره بالدنيا، والثاني سيبقى محبباً للدنيا، متمسكاً بها ولا يرحل عنها، ويركن لها، وهذا يصبّحه الجيش، والأول سار على مهل فنجا.

ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **"فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ**

مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ".

إذا في هذين النصين تبين لنا مثلين للنبي -صلى الله عليه وسلم-:

مثل أنه داعٍ إلى المأدبة في الدار.

ومثل أنه النذير العريان -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

فمن ثمّ الخلق موقفهم منه الاستجابة له، اتباع سنته، فهو دلنا الطريق ونحن نتبع ما دلنا.

ننتقل إلى النص التالي الذي يدل على نفس المفهوم: (نقتدي بمن قبلنا، ويقتدي بنا من بعدنا)

• حدثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا لَيْثٌ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا تُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "أَمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمَ مِنِّي مَالُهُ وَنَفْسُهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ" فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ.

قَالَ ابْنُ بُكَيْرٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ: عَنِ اللَّيْثِ: عَنَاقًا وَهُوَ أَصَحُّ.

← الآن سيتبين لنا موقف، بين أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- على نفس مفهوم (نقتدي بمن قبلنا ويقتدي بنا من بعدنا)، وكيف أن الدلالة على الطريق إنما تكون من الأفهم؛ يعني يفهم النص جيدًا فيدله على الطريق ومن بعده يستدل مثله.

هذا الموقف مشهور، لما توفي النبي واستُخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر، فأنت حرب الردة، فعندما أراد أبو بكر قتالهم، رأى عمر أن القتال شيء عظيم؛ لأنهم قالوا: "لا إله إلا الله" وتركوا الزكاة، فيرى أن كلمة "لا إله إلا الله" تعصمهم، واستشهد بالدليل.

فهذا الموقف الأول الذي يدلّك على أن الاعتصام طريق هؤلاء، هو لم يوافق مباشرة على القتال، فقال: "لديّ دليلٌ يمنع من القتال" وأتى به لأبي بكر، ولم يذهب للناس ويدور عليهم ويقول: "إن أبا بكر قرر قرارًا، وأنا لا أوافق عليه!" مثلما يحصل الآن من الخلق وما يحصل مع أولياء أمورهم! يتكلمون في ظهورهم ويرون أنها شجاعة! يقول: "كلمة حق عند سلطان جائر!!" (عند) ظرفية وليس معناها أن أدور على كل الناس!

وهذا الموقف يدل على أن الإنسان عندما يرى أمرًا يستطيع تغييره، يدخل لمن هذا شأنه.

الشاهد: أنه أتى بالدليل وقال لأبي بكر: "كيف تقاتل الناس، وقد قال النبي: (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ)"؟ عمر ما انتبه للاستثناء (إِلَّا بِحَقِّهِ)، يعني صحيح أن لا إله إلا الله تعصم الدم والمال، لكن إلا بالحق، وإلا فلا يُعصم الدم والمال.

فقال له أبو بكر -رضي الله عنه-: (وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ) هذا هو الفهم الصحيح؛ لأن من قال: "لا إله إلا الله" لا يُقاتل إلا بحقه، وهنا هذا حق المال.

(وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ).

إذا انظر لمتابعة عمر وانظر لفهم أبي بكر -رضي الله عنهما-. وانظر مرة أخرى لمتابعة عمر، وهو معلوم بقوة رأيه وشخصيته، ومع ذلك قال: (فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ).

إذا هما المرآن يُقتدى بهما، عندما نظر لموقف أبي بكر كان مقتديًا، بمعنى أن هذا الموقف يدل على أمر مهم جدًا: أننا في حال الاقتداء لا

نقدم آراءنا؛ لأن عمر على قدره ومنزلته، عندما رأى أن الله شرح صدر أبي بكر، جعل الاعتصام بالنص على فهم أبي بكر رضي الله عنهما.
وهذا يعني أننا لا نتعدى النص.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اللقاء الرابع

تابع بَابُ الإِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمداً كثيراً طيباً ونسأله - سبحانه - كما يسر لنا الاجتماع في مجلس من مجالس العلم، أن يقبله منا وأن يجعل الملائكة التي تحف بالعادة مجالس العلم، تحفنا وأن يجعلنا ممن يذكرهم الله فيمن عنده.

هذا المجلس الرابع ونحن نتدارس هذا الكتاب العظيم وهو **كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة** وهذا الكتاب إنما هو كتاب من كتب صحيح البخاري، ومعناه أننا نتدارس سنة النبي - صلى الله عليه وسلم -، وكما مر معنا معنى كلمة الاعتصام هو: **التمسك** الشديد، الذي يخاف صاحبه على نفسه من الغرق، خصوصاً ونحن نقرأ في كتاب الله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١) وكأن الصورة التي يتصورها العبد: أنه مُدَّ إليه من السماء بحبل، إذا تمسك به نجا وإن تركه في لحظة لا بد أن يقع

(١) آل عمران: ١٠٣.

في الهلاك، فالمطلوب من العبد التمسك الشديد به، والتمسك المقصود به هنا: أن نعظم الكتاب والسنة، ونراهم المصدر الوحيد الذي به يهتدي العبد، خصوصًا وأن الله وصف هذا الكتاب العظيم، وهذا الوحي، بثلاثة أفعال منه: أنه **أكمله** وأنه **أتمه** وأنه **رضيه**. فما أكمله الله وأتمه ورضيه، المفترض أن نقبله. والطريق لهذا التمسك إنما يكون بالعلم؛ ولذلك أورد البخاري في بداية هذا الكتاب حديث ابن عباس لما دعا له النبي -صلى الله عليه وسلم-: «اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْكِتَابَ». فالمعتصم

- عبدٌ يشعر بأن هذا الكتاب هو الكتاب العظيم.

- وأن هذه السنة وحيٌّ من عند الله.

- وأنه لن يستقيم على الطريق إلا بالتمسك بهما.

- وأن الطريق إلى ذلك تعلمهما.

وقد مر معنا أن تعلم الكتاب والسنة، ليس كما يتصور الناس من معرفة حروفهما وإتقانها، وتجد أن معانيهما سواء الجملة والتفصيلية ليست في قلب العبد، فإن كل كلمة في كتاب الله لها لفظها ومعناها، ومن تعلمها إنما يتعلم اللفظ ويتعلم المعنى، وهذا يحتاج إلى بيان، وهذا ليس مقامه الآن، إنما كلامنا الآن عن الاعتصام نفسه بالكتاب والسنة، ثم لابد

للمعتصم أن يتعلم الكتاب والسنة، وكيفية ذلك لابد لها من كلام تفصيلي حول طريقة التعلم.

المقصد: أن الطريقة العامة عند الناس لتعلم الكتاب والسنة غير مرضية؛ والسبب: أن الناس يهتمون بتعلم الألفاظ، ويتركون تعلم المعنى، خصوصًا أن البخاري أول ما عقد الباب الأول في هذا الكتاب قال: (بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ").

ومعنى هذا أن صفة الكتاب والسنة: أنهما: جوامع الكلم. ما معنى جوامع الكلم؟ أي: كلام قليل، ومعانٍ غزيرة. فنفهم أنه بما أن الكتاب والسنة جوامع الكلم، فإن أردت الاعتصام بهما، لابد أن تعلم أنها غزيرة المعاني، وهذا يرد على إشكال قد يتعرض له الإنسان وهو: أن نأتي ونقول: مثلًا سورة الأعراف تعالج مرض الهوى، وهي حقيقة تعالج مرض الهوى والكبر، فيقرأ القارئ سورة الأعراف، ولا يجدها تعالجه، ما السبب؟ أنه لا يفهمها بالطريقة الصحيحة، فيستغرب عندما يقول العلماء: "إن هذه السورة تعالج كذا وكذا" فالمقصد أن من علم أن الكتاب والسنة فهما جوامع الكلم، علم أنه ليعتصم بهما، عليه أن يقرأ ألفاظهما ويفهم معانيهما، وسيجد ما يحتاجه في الكتاب والسنة، ثقة يقينية ولا يحتاج أي منهج ولا فلسفة، ولا أطروحة لا في التربية ولا تزكية النفس ولا في الاقتصاد، فأى وجه من وجوه الحياة سيجده في كتاب الله،

لكن ليس كما يتصور الناس بأن يأتي النص ناطقًا له، وإنما فيهما جوامع الكلم.

كيف أتعامل مع الكتاب والسنة؟ خصوصًا والناس كلهم يدعون أن منهجهم الكتاب والسنة، أتى بالباب التالي مباشرة وسماه: (بَابُ الإِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ) يعني المعتصم ينظر للكتاب والسنة على أنهما المصدر الوحيد للصالح، ثم هذا المعتصم يقتدي بسنن رسول الله. وهذا بالضبط معنى السلفية وسيصف بالتفصيل كيف تكون على منهج من سلف، سعى الباب (بَابُ الإِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ) ثم أتى بنصين يعتبر كل الباب يدور حولهما، أورد قوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ثم أورد قول مجاهد: (أَيْمَّةٌ نَقْتَدِي بِمَنْ قَبْلَنَا، وَيَقْتَدِي بِنَا مَنْ بَعْدَنَا). إذا هذا طريق فهم الكتاب والسنة، فنحن لسنا منبئيين أو منقطعين وما قيل لنا: "انظروا للكتاب كما ترى عقولكم أو فهمكم!" إنما أنت إن كنت إمامًا، يقتدي بك من بعدك، أو تريد أن تكون إمامًا، فلا بد أن تقتدي بمن قبلك؛ ولذا أورد في أول الكتاب (بَابُ الإِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ) كأنه يقال: "كيف نقتدي بسنن رسول الله بعد ١٤٠٠ عام؟ سيقول لك: الطريق لازال موجودًا والناس لا زالوا سائرين فيه، وكأن العبد يتمثل

جيدًا أن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وصحابته يسبقونه على الطريق، وكان النبي يحمل الراية، وكأنك تنظر له وراية الإسلام وراية الدين وراية المنهج لديه، ثم صحابته ساروا على سيره ثم مَنْ بعدهم، كأننا نقول: التابعون ما رأوا النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، لكنهم رأوا من رأى النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ فساروا على منهج رسول الله، ثم تابعوا التابعين، وهكذا إلى عهدنا هذا؛ ولذا أورد البخاري في نفس الباب الحديث الذي فيه ضربت الملائكة مثلًا للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

(مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً، وَبَعَثَ دَاعِيًا فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ الْمَأْدُبَةِ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْمَأْدُبَةِ).

وبهذا تصور المسألة كأن دارًا بُنيت في أطراف المدينة بعيدة، ولا أحد يعلم الطريق، إلا أن الذي بناها أرسل داعيًا يقول: "اتبعوني أدلكم؛ فتدخلوا الدار وتأكلوا من المأدبة"، المطلوب لتصل إلى الدار، أن تكون عينك على الداعي، أو من يسير خلف الداعي، وإذا طال الزمن تكون عينك على أقرب شخص يسبقك ينظر إلى الداعي، هذه الصورة تمثل موقفنا من النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وقد أوّلت الملائكة للنبي -صَلَّى

الله عليه وسلّم- هذا المثل، بأن **الداعي** هو: النبي، وأن **الدار** هي: الجنة،
والمأدبة: ما فيها من نعيم. فمن استجاب للنبي -صلى الله عليه وسلّم-
دخل الجنة ومن لم يستجب للنبي لم يدخل الجنة.

فالمقصد أننا إذا أردنا أن نكون أئمة يُقتدى بنا، لابد أن تكون أعيننا
على من سبقنا. وهذا محور الباب (بَابُ الْإِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ)، يعني
الأمر لا يحتمل الاختراع ولا التعامل، ولا إدخال العقل في المسألة، إنما بما
ملكك الله من عقل، ابذل جهدك لدراسة وتعلم ما آتاك، وليس في
الاختراع! ولاحظوا الفرق بيننا وبين الأمم، الأمم لتتطور لابد أن تقطع
علاقتها بمن سبق، في مقابل أننا من أجل أن نسير ونصل للنجاة، لابد أن
نوثق علاقتنا بمن سبق؛ ولذلك انظر لطوافنا وسعيننا، عندما ننتهي من
الطواف ونقبل على مقام إبراهيم، من السنة أن نقول: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ
مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾^(١)، معنى ذلك أنك تربط نفسك بهم، عندما
تذهب للحج، تعرف أن هذه الأرض وطأتها أقدام الأنبياء، ويقال لك:
"هذا مسجد الخيف، صلى فيه سبعون نبياً"، فمعنى ذلك أننا لسنا

(١) البقرة: ١٢٥.

منفصلين عن سبق، بل تامين الاتصال بهم، أما أن نرى أن عقولنا تفهم أكثر ممن سبق، وأن فهمنا سيكون أكثر عمقًا، فهذه خديعة شيطانية، لا لغة تساعدنا على ذلك، ولا قلب صافٍ يساعدنا على ذلك، ولا فراغ في الوقت يساعدنا، وكم ترك الأول للأخر! كم ترك له كنوزًا المفترض أن يبذل جهده للأخذ منها.

إذا الباب اسمه (بَابُ الْإِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ) ، وأول ما بدأ أورد قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ثم أورد قول مجاهد: (أئمةً نقتدي بمن قبلنا، ويقتدي بنا من بعدنا). إذا من يسير على الطريق لن تجده يخترع -هذه صفة مهمة جدًا- وإنما تجده يقول لك مثلًا في تفسير آية: "قال الطبري أو البغوي أو ابن كثير" ، أما أن يعتمد على رأيه وينقطع عن الأوائل، فهذا غير مقبول، ومثله في فهم سنن النبي -صلى الله عليه وسلم-. ثم أورد كلامًا لابن عون، وهو من صفار التابعين، ذكر ابن عون ثلاثة أمور تعتبر بمثابة الخطة من أجل أن تصل للاقتداء، قال:

(ثَلَاثٌ أَحِبُّنَّ لِنَفْسِي وَإِخْوَانِي، هَذِهِ السَّنَّةُ أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا، وَيَسْأَلُوا عَنْهَا)

يتعلم السنة ويبحث عن الكتب التي شرحتها، وما لم يفهمه، يسأل عنه.

(وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ وَيَسْأَلُوا عَنْهُ) يعني يقرؤون القرآن ويبدلون جهودهم أن يتفهموه، يسألون عن معنى الآيات، وما لم يفهموه، يسألوا عنه.

(وَيَدْعُوا النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ) وليُعلم أن الأخيرة هي التي تأتي بالأولى والثانية، بما أنك مشغول بالناس، فلن تسأل عن القرآن ولا السنة؛ لأن كل طاقتك ستذهب مع الناس؛ ولذا أتى بهذه الثلاثة.

أتى بها البخاري في باب الاقتداء كأنه يقول: المقتدي يفعل ثلاثة أمور: **السنة** يتعلمها ويسأل عنها، **القرآن** يتفهم ويسأل عنه، **وأن يدع الناس** إلا من خير.

ولابد من الثلاثة ليكون هناك اقتداء حقيقي؛ لأن الشاغل للناس عن نفوسهم وعن القرآن والسنة، أن يتنقل بين كلام الناس، هذا يعطيه وذاك يذهب به يمنا ويسرة ويضيع، لكن من أراد السير على الطريق المستقيم، فليكن القرآن والسنة هادياه، يتفهمهما ويتعلمهما ويسأل عنهما من هم ثقة في دين الله.

ثم أورد في الباب كيف أن الصحابة الكرام مثل عمر وأبو بكر -رضي الله عنهما- كان حالهم حال الاقتداء.

وأورد المثليين في الحديث، المثل الذي ضربته الملائكة للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والمثل الذي ضربه النبي لنفسه.

أما المثل الذي ضربته الملائكة فهو واضح، وكيف أن: **(مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً، وَبَعَثَ دَاعِيًا).**

والنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ضرب مثلاً لنفسه قال: **(وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ).**

وهكذا اجتمع في الباب وصفين للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

وصف أنه **(مبشّر)** لما كان داعياً إلى المأدبة.

ووصف أنه **(منذر)** عندما كان هو النذير العريان.

والمقصود بـ **(النذير العريان)**: من يأتي لقومه ويقول إنه رأى الجيش

بعينه، فالناس ينقسمون حينئذ إلى قسمين:

- إما يستجيرون فيسيرون بالليل.

- وإما يكذبون ويبقون بمكانهم ويأتهم الجيش.

فالذي آمن بالنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وصدق رسالته، هرب من

العذاب، ومن لم يصدق أخته ملائكة العذاب وقبضت روحه.

فالمقصد: أن النبي بشيرٌ ونذيرٌ والسائر على طريقه، يرى من هنا أن يتبع النبي فيما أمر ويحذر مما حذر منه النبي -صلى الله عليه وسلم-، وعلى ذلك كل شيء تسمعه من النبي ويخبرك به، لآبد أن تكون فيه: الثقة اليقينية، ولآبد أن يكون فيه تعظيم لشأن الشيء الذي يُخبرك عنه النبي -صلى الله عليه وسلم-، مثلاً يقول لك النبي: **«بادروا بالأعمالِ فتناً كقطع اللّيلِ المظلمِ، يصبحُ الرّجلُ مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبحُ كافراً يبيعُ أحدهم دينه بعرضٍ من الدُّنيا»**^(١)

الآن النبي يقول لك: "بادر بالأعمال"؛ لأنها الحل الذي ترد به الفتن التي تأتيك، فلا تأخذ كلمة **بادروا** على أنها كلمة، تفهم معناها وتفصلها فقط، إنما هي كلمة عظيمة، ومعناها أنه كلما أتت فرصة فبادر، وتصبح المبادرة صفة لك، يعني عظّم الكلمة التي قالها النبي، وافهمها جيداً بعمق وعش معانيها، ثم ستجد نفسك أن من نهجك القلبي، كلما أتت فرصة، استفدت من كلمة النبي: **بادروا**، وتفهم أن هنا مبادرة للخير، وهنا مبادرة للخير، فانظر لكلام رسول الله على أنه **من جهة: جوامع الكلم**، كلمات

(١) أخرجه الترمذي (٢١٩٥).

قليلة، وراءها معانٍ غزيرة، **ومن جهة:** كلمات مباركة، بمعنى أن الكلمة الواحدة تشق لأصحابها الطريق. لكن من الذي يأخذ من بركة كلام النبي؟ الذي ينظر لكلام النبي على أنه يصف الحياة، على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أرسل من عند ربه بالخير، والخير ما قاله النبي، وليس خيراً إلا ما قاله، وعلى ذلك كل المناهج الأخرى والأطروحات التي تصلح النفس والمجتمع، ليست بشيء إلا إذا كانت من كلام الله وكلام رسوله وعلى فهم السلف، وليس على فهم من يلوي عنق النصوص، ومرّ معنا أن كثيراً ممن ربما اختلط عليهم الأمر، يأتون بأفكار من هنا وهناك لإصلاح النفس وتزكيتها، ثم يأتون بالآيات ويؤولونها على فهم هؤلاء، يريدون أن يُشرعنوا أفكار هؤلاء وهؤلاء! وأنت عندما تقرأ سورة الشمس تجد أن الله -عزّ وجلّ- أقسم أحد عشر قسمًا على: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ ، تعرف أن أي شيء يتصل بالتنمية البشرية أو التزكية النفسية -كما يعبرون- في هذا الكتاب، ونعيد على أنفسنا أنه لا يمكن لأعشى أن يقود بصيرًا، أهل الإيمان هم البصيرين الذين معهم كلام الله، ومن تخبّط في الدنيا، هذا هو الأعشى، ولا يوجد صاحب عقل يقبل أن يقوده أعشى، وقد كررنا على أنفسنا أن هؤلاء

وصفهم رب العالمين بأنهم شر البرية، وأهل الإيمان، هم خير البرية، فكيف تأتي بمنهج من عند شر البرية وتريد أن تُخرج خير البرية من وراء كلامهم؟! فهمما لويت عنق النصوص، سيبقى هذا كلامهم ومناهجهم، ولسنا بحاجة أبدًا إلى ذلك، لكن هذه من آثار الهزيمة النفسية يعني المهزوم بدلًا من أن ينكب على ما ورث من سابقيه، يعطي ظهره للميراث ويقبل على هذا وذاك، ويظن أن الذين أصلحوا دنياهم وأصلحوا الأرض، يستطيعون أن يصلحوا النفس! نحن لا نختلف على أنهم استطاعوا أن يصلحوا الأرض، لكنهم ما استطاعوا أن يصلحوا النفس، وكل الواقع يشهد على ذلك، وكل من يستورد منهجًا، يرى آثاره في الواقع.

المقصد: أن المعتصم، المقتدي بسنة رسول الله، لا يرى بديلاً للكتاب والسنة في أي مسألة، وكثير من يقول: "نحن لا نفصل بين الدين والحياة" لكن عندما نأتي للواقع، ونضع أصبعنا على الجرح، نجد أنها تغلغت في داخلنا هذه المشاعر، أننا نصلي على منهج النبي، ونصوم ونفعل العبادات كلها على منهج النبي، لكن عندما نأتي نحلل الواقع والأوضاع ونريد أن نربي أبناءنا، نجد أن هذا كله قد يكون مستوردًا! وهذا معناه أنه حصلت حالة من الفصل، وهذا ما يثبت أننا نعاني من الكسل،

وإلا فالمناهج موجودة، والكتاب موجود، وكلما ظهرت للعبد حالة من الحالات، لأبد أن يعود لكلام الله وكلام رسوله، وسيجد ما يحتاجه، ومن هذه الأمثلة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما أتى يعلم ابن عباس، وهو غلام لم يناهز الحلم، علّمه هذه العقيدة العظيمة: «**احفظِ الله يحفظك، احفظِ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسألِ الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك.**»^(١)

معنى ذلك أن الذي يربي أحداً في هذا السن، عليه أن يهتم ببناء الاعتقاد؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بنى اعتقاده، معنى ذلك أنه من أن يفهم الطفل الخطاب، ويرد الجواب، إلى قرب سن البلوغ، فهذه تعتبر المرحلة الخطيرة في بناء العقيدة، في مقابل المنتشر من الفكر المستورد، أن الطفل في هذه المرحلة لا يحتمل الكلام عن الغيبيات، ولابد أن يكون كل شيء محسوساً! ولذا مدارس رياض الأطفال المعتمدة على هذا الفكر

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦).

دائمًا تجد أركانها عبارة عن محسوسات، والتلاعب بنا أنك تجدهم يقولون لك: "لابد أن يكون التعليم في المحسوسات!" وعندما ترى أفلام الكرتون، تجدها كلها أمور خيالية، فماذا يحدث للطفل؟ يسبق هذا الخيال لقلبه، فيرى شخصيات قوية، ثم تقول له: "ربنا قوي" فتجده يقارن بين الله وبين هذه الشخصية! وهذه أكذوبة كبيرة، الطفل من أن يفهم الخطاب ويرد الجواب، إلى قرب سن البلوغ، هذا أحسن وقت يُبنى فيه الاعتقاد والإيمان بالغيب، وجرعة جرعة حتى يستقر، ثم حين يكبر بعد ذلك ويكون بتعبيرنا (مراهق) يكون على أساس ما بُني في قلبه من اعتقاد، ومعنى ذلك أنها تبقى العقيدة كالركيزة في نفسه وكلما بعد، يعود وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ لَيَعَجَبُ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبَوَةٌ»^(١) يعني من الطبيعي أن يكون له صبوة وبعده، لكن حين يكون الأساس قويًا، مهما بعد لن يكون كالبعُد الذي نسمعه اليوم وضافت به النفوس، اليوم تجد في المواقع ما وصل إليه الشباب من التعدي على ذات الله، من إنكار وجود الله، من الاستهزاء بالدين! نتيجة غياب بناء العقيدة في فترة بنائها.

(١) أخرجه أحمد (١٧٣٧١).

فمهما كانت الصبوة، لن يبتعد عن الطريق.

المقصد أن الاقتداء بسنن النبي -صلى الله عليه وسلم- طريق في كل

أمر، المعتصم في كل شيء يعتصم بالكتاب والسنة.

سنقرأ حديث اليوم وهو تحت (بَابُ الإِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ)، ومن

الطريقة المنهجية في دراسة صحيح البخاري أننا بعد قراءة الحديث نرى

علاقته بالباب، ثم نرى ما علاقته بكتاب الاعتصام:

• حدثني إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنِي ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ يُونُسَ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ،

حَدَّثَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ قَالَ: قَدِمَ

عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُدَيْفَةَ بْنِ بَدْرِ، فَانزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسِ

بْنِ حِصْنِ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ

مَجْلِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كَهَوْلًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا

ابْنَ أَخِي، هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ؟ فَتَسْتَأْذِنَ لِي عَلَيْهِ، قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ

لَكَ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذِنَ لِعُيَيْنَةَ: فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ: يَا ابْنَ

الْخَطَّابِ، وَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ وَمَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ، فَعَضِبَ عُمَرُ

حَتَّى هَمَّ بِأَنْ يَقَعَ بِهِ، فَقَالَ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ -

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾،

وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ، فَوَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ.

← هذا الحديث قصة حصلت بين رجل وعمر رضي الله عنه.

وفيها شاهد على أن عمر كان وقافاً عند كتاب الله وعند سنن رسول الله، هذه القصة يحكيها عبد الله ابن عباس قال: (قدم عيينة) نزل عيينة على ابن أخيه اسمه الحُر ابن قيس، الحُر كان من النفر الذي يدينهم عمر - رضي الله عنه - بمعنى أنه يقربه (وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ، وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَجْلِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كَهَوْلًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا) عمر - رضي الله عنه - كان له مجلس، يشاور فيه القراء، يعني العلماء، سواء كانوا كهولاً أو شباناً، ومن بينهم الحُر ابن قيس، وهذا عيينة أتى عليه وقال له: "أدخلني عنده".

(فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي، هَلْ لَكَ وَجْهُ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ؟ فَتَسْتَأْذِنُ لِي عَلَيْهِ) يعني في مجلسه الخاص وليس في المجلس العام.
(قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذِنَ لِعُيَيْنَةَ) يعني الحُر استأذن لعيينة.

(فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ) هذا النداء من بدايته فيه سوء أدب.

(وَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزَلَ) يعني ما عظم من الحطب، يعني ما تعطينا حتى أقل الأشياء.

(وَمَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ) وله حق أن يغضب، تطاول وإساءة وفي نفس الوقت ظلم.

(حَتَّى هَمَّ بِأَنْ يَقَعَ بِهِ) وإذا وقع به، فله في الشريعة ما يؤيده.
(فَقَالَ الْحُرُّ) وهو الذي أدخله عليه.

(يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-) وهنا الشاهد في الاقتداء بسنة رسول الله (قَالَ لِنَبِيِّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾) فلما قال لنبيه امتثل النبي ذلك.

(وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ) يقصد عيينة. فقال ابن عباس: (فَوَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ) يعني ما تصرف أي تصرف، إلا أنه وقف عند الآية.

أين الشاهد الآن بالنسبة لنا في كتاب الاقتداء بسنن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؟ أن الحر قال: "يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه، فإذا قال لنبيه والنبي امتثل -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فمن المؤكد أنك ستمثل"،

فأخذ النبي العفو، أي: أخذ ما عفت عنه أخلاق الناس، قبل ما أتى منهم، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين: بمعنى أنه يتركهم إذا سفهوا، يعني لا يتسافه مع سفههم، فإن السفهاء كثيرون والعقلاء قليلون، فإذا أخذ العقلاء أنفسهم بسفاهة السفهاء لم يبق عقلاء!

(فَوَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ) دليل على اعتصامه وتمسكه بالكتاب والسنة.

ننتقل للنص التالي:

• حدثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، عَنِ مَالِكٍ، عَنِ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنِ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْمُنْذِرِ، عَنِ أَسْمَاءَ ابْنَةِ أَبِي بَكْرٍ، أُمِّهَا قَالَتْ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ حِينَ خَسَفَتِ الشَّمْسُ، وَالنَّاسُ قِيَامٌ وَهِيَ قَائِمَةٌ تُصَلِّي فَقُلْتُ: مَا لِلنَّاسِ؟! فَأَشَارَتْ بِيَدِهَا نَحْوَ السَّمَاءِ، فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللَّهِ، فَقُلْتُ: آيَةٌ، قَالَتْ بِرَأْسِهَا: أَنْ نَعَمَ فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: "مَا مِنْ شَيْءٍ لَمْ أَرَهُ إِلَّا وَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي"، حَتَّى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ قَرِيبًا مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ -أَوْ الْمُسْلِمُ، لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ - فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ فَأَجَبْنَا وَآمَنَّا، فَيُقَالُ: نَمَّ صَالِحًا عَلِمْنَا أَنَّكَ مُوقِنٌ، وَأَمَّا

الْمُنَافِقُ - أَوْ الْمُرتَابُ، لَا أُدْرِى أَيْ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ - فَيَقُولُ: لَا أُدْرِى
سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ".

← هذا النص فيه تنقلات.

(عَنْ أَسْمَاءَ ابْنَةِ أَبِي بَكْرٍ، أَنَّهَا قَالَتْ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ حِينَ خَسَفَتِ الشَّمْسُ):
هذه أسماء -رضي الله عنها- أتت عند عائشة -رضي الله عنها- وهي لا تعلم
أن الشمس قد خسفت.

(وَالنَّاسُ قِيَامٌ وَهِيَ قَائِمَةٌ تُصَلِّي) عائشة -رضي الله عنها- قائمة تصلي،
وأسماء دخلت عليها.

(فَقُلْتُ: مَا لِلنَّاسِ؟!) يعني ما بال الناس فزعين.

(فَأَشَارَتْ بِيَدِهَا نَحْوَ السَّمَاءِ) يعني عائشة وهي تصلي أشارت بيدها
للسماء، تقصد كسفت الشمس.

(فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللَّهِ) يعني عائشة أشارت إلى السماء، وقالت: "سبحان
الله!" إشارة إلى أنها آية.

(فَقُلْتُ:) أسماء (آيَةٌ) يعني بعذاب الناس (قَالَتْ بِرَأْسِهَا: أَنْ نَعَمَ).

(فَلَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ
قَالَ: مَا مِنْ شَيْءٍ لَمْ أَرَهُ إِلَّا وَقَدْ رَأَيْتُهُ) يعني رؤية عين، رأى بعينه -صَلَّى

الله عليه وسلّم- كل الحال التي يكون عليها الخلق بعد ذلك من جهة الجنة والنار.

(وَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي) يعني وهو قائم يصلي.

(حَتَّى الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَأَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ) يعني تمتحنون فيها وكان هذا آخر اختبار يُختبره الإنسان؛ لأن الحياة كما نعلم جميعاً عبارة عن اختبار، والامتحان الذي نمتحنه في نهاية الأمر، في القبور، هو نفسه الثلاثة أسئلة التي نعيش عليها، يبقى طوال حياته يهتم في معرفة من هو الله؟ ليجيب على سؤال: من ربك؟ وفي معرفة من هو النبي -صلى الله عليه وسلّم- وسننه؟ ليجيب على سؤال: من نبيك، وفي معرفة ما هو الدين ومعايشته؟ ليجيب: ما دينك؟ وليعلم أن هذه الثلاثة أسئلة لا تؤخذ بالتلقين وسيتبين من النص قال:

(وَأَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ) وهي أعظم فتنة تمر على الخلق، فتنة الدجال.

(قَرِيبًا مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ) في عظمتها وفي شدتها.

(فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ - أَوْ الْمُسْلِمُ، لَا أَدْرِي أَيُّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ) هذا الراوي يقول: المؤمن أو المسلم".

هنا الشاهد: (فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ فَأَجَبْنَا وَأَمَّنَّا، فَيُقَالُ: نَمَّ صَالِحًا عَلِمْنَا أَنَّكَ مُوقِنٌ).

(وَأَمَّا الْمُنَافِقُ - أَوْ الْمُزْتَابُ) يعني الشاك (لَا أَذْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ- فَيَقُولُ: لَا أَذْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ).

المقارنة بين الاثنين ستكون إشارة إلى وجوب الاعتصام والاعتصام بسنة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، كأن السؤال يقول: ما هي الأسئلة الثلاثة؟ (من ربك؟ من نبيك؟ ما دينك؟) هذه الأسئلة الثلاثة الناس يعيشون في الحياة من أجل أن يتيقنوا بها لأنه لاحظوا كيف وُصف؟ (نَمَّ صَالِحًا عَلِمْنَا أَنَّكَ مُوقِنٌ) والموقن معناه أنه حصل له: علم اليقين، عين اليقين، ويصل في بعض المسائل لحق اليقين. وهل علم اليقين يعني أن يسأل الإنسان نفسه: ما معنى اسم الله الصمد الذي تكرر في الصلاة؟ وما أثره عليك في عمل القلب؟ فلا يدري! ويقرأ مثلاً: ﴿السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِمِّنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾^(١)، ويقول بعد كل صلاة: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ»^(٢) ولا يدري، هذا ليس حال الموقن! إنما كما قال

(١) الحشر: ٢٣.

(٢) أخرجه مسلم (٥٩٢).

هنا: (مُحَمَّدٌ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ فَأَجَبْنَا وَآمَنَّا) وفي رواية أخرى تسأله الملائكة ما حالك وما صنعت؟ يصف الكتاب، قال رسول الله: «وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ رَبِّي اللَّهُ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ دِينِي الْإِسْلَامُ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ فَيَقُولَانِ لَهُ وَمَا يُدْرِيكَ فَيَقُولُ قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ آمَنْتُ وَصَدَّقْتُ»^(١) يعني علاقته بالكتاب أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أتى بالكتاب وهو آمن بالكتاب وصدق.

يعني كأن الكتاب والسنة يجيبان على هذه الثلاثة أسئلة: (من ربك؟ من نبيك؟ ما دينك؟) وطوال الحياة المفترض أن يتعلم العبد عن الله، أسمائه وصفاته وأفعاله، من كلام الله وكلام رسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، هذا المعتصم ليكون ممن يقول: (مُحَمَّدٌ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ فَأَجَبْنَا وَآمَنَّا)، (قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ آمَنْتُ وَصَدَّقْتُ).

إذاً هذا المؤمن المصدق عليه أن يعرف الله من الكتاب والسنة، ويعيش معاني المعرفة، يعني يشهد يقيناً بأن ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (٢)

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣).

غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۗ إِلَيْهِ
الْمُصِيرُ ﴿١﴾ ، ويعلم أن الله ﴿السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ
الْمُتَكَبِّرُ﴾ لكن هذه ليست فقط ألفاظًا، إنما هذه ألفاظ، وراءها معاني
ومعاشية؛ ولذا النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ
اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢) يعني من عرفها من
أدلتها وفهم معانيها وعاش بها الحياة.

كيف يعيش بها الحياة؟ يعني هنا ترى آثار لطفه، وهنا ترى آثار ستره،
تقول: "هنا سترني الله"، "هنا لطف بي الله"، "هنا كفاني الله، وهنا جبرني
الله" وهكذا يبقى الإنسان يتكلم عن الله ليله ونهاره، مصدقًا قول الله
تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(٣) فهو يرى كل الحياة عبارة عن إنعام
الله، ويرى كل الحياة عبارة عن آثار معاملة الله لخلقه. فمن يعرف الله
هذه المعرفة، عندما يُسأل: "من ربك؟" سيجيب، ليس مثل المنافق أو
المرتاب، هذا كما في سورة الحديد، شخص عايش أهل الإسلام، ثم يوم
القيامة يقول هو وأمثاله للذين آمنوا: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ

(١) غافر: ٣-١.

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٩٢).

(٣) الضحى: ٢٠.

ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١﴾ الآن هنا الشاهد ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ يعني هذا المنافق أو المرتاب ما صورته؟ مع المؤمنين يشهد شهادتهم، ويصلي صلاتهم، ويعبد عبادتهم، ويصوم شهرهم، إلا أنه من داخله مرتاب، ما سبب الريب؟ الشك ما سببه؟ ضعف العلم حتى يزول! ولذلك لا تظن أن كل المنافقين لم يؤمنوا، بل الله في سورة المنافقون قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ (٢) وفي النساء قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (٣) وفي سورة البقرة أتى وصفهم بوضوح، قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٤) ضرب لهم مثلاً كمن استوقد ناراً، فهذا نور الإيمان، فلما أضاءت ما حوله وأصبح كل شيء واضحاً، لم يحافظ على النور، لم يرم في هذه النار حطباً، لم يرم علماً ولم يحافظ عليه،

(١) الحديد: ١٣.

(٢) المنافقون: ٣.

(٣) النساء: ١٣٧.

(٤) البقرة: ١٧.

فذهب الله بنورهم، وبقوا في ظلمات لا يبصرون، فعندما تسمع كلمة منافق لابد أن تخاف، والحل للخروج منها: التمسك، هنا (مُحَمَّدٌ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ فَأَجَبْنَا وَأَمَّنَّا)، وهناك (قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ آمَنْتُ وَصَدَّقْتُ).

المقصد: أجبنا من جهة من هو الله، وأجبنا من جهة من هو رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وأجبنا من جهة الدين.

إذا المعتصم بكتاب الله وسنة رسول الله حاله كحال هذا الذي يقول: (مُحَمَّدٌ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ فَأَجَبْنَا وَأَمَّنَّا)، معنى ذلك أن العبد المفترض أن يمضي الحياة كلها في دراسة هذه الثلاثة، بحيث أن يصل في نهاية الأمر للإجابة اليقينية، ولا تظن أن دراسة هذه الثلاثة كما يظن الناس إنما هي حكر على المتخصصين، نحن نريد ما ينجينا عندما نلقى ربنا، والعلم الذي مدحه الله في كتابه، إنما هو العلم الذي يوصلك لليقين، ومهما كان وصفك أو حالتك فإن معرفتك بربك تطيب بها الحياة، وبها ينجو الإنسان يوم أن يلقي الله، معرفتك بالنبى -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تيسر عليك جميع الأمور في الوصول؛ ولذلك انظر كيف جعل الله -عَزَّ وَجَلَّ- الصلاة والسلام على رسول الله سببًا لكفاية الهم، لماذا؟ ليعظم عندنا النبى -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، تعظيم من يرى أن من سار على منهجه

وصل إلى الطريق، وليس تعظيم من يتخذه من دون الله؛ لأن الانحرافات تأتي من جهة التعظيم للنبي أو التوقير الذي لا يسير على المنهج، لكن السائر على المنهج، يرى أن متابعة النبي -صلى الله عليه وسلم- سبب لنجاته في الدنيا والآخرة، ثم الدين هو الذي تطيب به النفوس وتطيب به الحياة والتربية ويصل الإنسان ناجيًا لربه.

الشاهد من الحديث: أن المعتصم، المقتدي، يرى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- جاء بالبينات. هل نحن تنقصنا بيّنات تبين لنا الحياة؟! هل نحتاج أن نستورد فكرة في أي أمر ينمينا أو يزكينا أو يرشدنا؟! لا، أبدًا (**قرأت كتاب الله آمنتُ وصدقتُ**)، الوقت الذي يقضيه الناس -خصوصًا الذين لهم علاقة بالاستقامة- في قراءة كلام هؤلاء وهؤلاء من الفلاسفة وغيرهم، أولى به أن ينكبوا على كتاب الله ويفهموه من كلام من سلف، ولسنا بحاجة لهذه الخرافات كلها، بل الأمر وصل لأن يُغلف الشرك بتغليفات تناسب الحال! وأعيد نفسي وأعيدكم وأعيد حتى الذين يأتون بهذه الأفكار، أن يكون مقصدنا أن نترك الدين، لكن الناس ينخدعون، وقد مرّ معنا سابقًا في النقاشات كيف دخلت علينا مسألة مثل مسألة الطاقة، وعندما تجردها تمامًا، تجد أنه كأن هناك أحدًا غير الله يريدون

منه العطاء، فيقولون: "البس كذا ليحصل لك كذا"! ووصل الحال أن يستشهدوا ببعض النصوص من أجل إثبات مثل هذا، ومن هذه النصوص قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا»^(١)، يقولون: "هذا النور إنما قصد به الطاقة"! وهذا معناه أن نسألهم: عندما تفسرون قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢) ماذا ستقولون؟ إنما هذا معلوم ما معناه، ومعلوم سؤال النبي -صلى الله عليه وسلم- لهذا الأمر، ومعلوم أن هذا لا علاقة له بهذا الكلام تمامًا، لكن كما مر معنا، في كل زمن يتطور الباطل على حسب حال أهل الزمن، يعني منذ زمن كان الكاهن موجودًا في غرفة مظلمة، واليوم الكاهن له مكتب وله بريد إلكتروني، معنى ذلك أننا لا نعطي للأمور صورة واحدة، بل في كل عصر يتغير الأمر، ومر معنا «أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَأَى رَجُلًا بِيَدِهِ حُلْقَةٌ مِنْ صُفْرِ فَقَالَ: مَا هَذِهِ؟ قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ، قَالَ: انزَعَهَا فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا وَلَوْ مُتَّ وَهِيَ

(١) أخرجه مسلم (٧٦٣).

(٢) النور: ٣٥.

عليك ما أفلحت^(١)، حلقة من نحاس يلبسها لتدفع عنه الوهن، قال: **(انزَعْمَا فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا وَلَوْ مُتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ)**، معنى ذلك أن الخرافات التي نسمعها اليوم، هي نفس ما سمعناه منذ زمن، يأتون ويقولون: "وثبت بالتجارب..." مهما قالوا، نحن أمامنا النصوص القطعية التي لا مجال للمناقشة فيها، وكل ما يثبتون إنما هو دائر في التخرّصات وليس في الحق اليقيني.

الشاهد من ذلك: أننا نشهد جميعًا أن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جاءنا بالبينات، ولسنا بحاجة لغير ما جاء به النبي، وهذا شعور المعتصم، أما الشاك والمرتاب في الدنيا، فهو يبحث عن أي منهج ويسمع الفلسفة من هؤلاء وهؤلاء، وفي نهاية الأمر عندما تأتي اللحظات الحرجة التي يظهر فيها الإيمان، ويأتي قبض الروح، يظهر للعبد ما كان مختبئًا في باطن قلبه، هل كان على يقين أو على شك؟! نسأل الله أن يصرف عنا وعن ذرارينا وشباب المسلمين الشك، ويجعلنا من أهل اليقين به

(١) أخرجه أحمد (٢٠٠٠٠).

المتفعين بكتابه، ونكون ممن يقول في كتابه: (قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ آمَنْتُ
وَصَدَّقْتُ)، اللهم آمين.

نقرأ الحديث الأخير في الباب:

• حدثنا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنِ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي
هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: "دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا
هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ
شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ."

← هذا سيكون إغلاقاً لهذا الباب وفتحة أيضاً للباب التالي (بَابُ

مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكْلُفِ مَا لَا يَعْنِيهِ).

يعني المعتصم لا يسأل عما لا يعنيه وإنما يسأل عما يعنيه.

النبى -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، يقول: (دَعُونِي) معناها: اتركوني. (مَا

تَرَكْتُكُمْ) يعني: ما دمت لم أخبركم بأمر في الشأن، فاتركوه.

(إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ): الباء هنا تعني: بسبب سؤالهم.

(وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ

بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ): وهنا دائماً يأتي أمر يُشكل على البعض،

خصوصاً مع فلسفة: "اسأل ما تريد وقل ما تريد والحوار..." وهذا كله

مقبول بحدود، والناس الآن في نفس حياتهم لا بد أنهم يجعلون للأسئلة حدود، يعني إذا ذهبت لطبيب عيون وبدأ يسأل عن أمور مثلاً لا علاقة له بها! أمور خاصة وحساسة، هل تقول له: أنت حر، اسأل عما تريد؟! لا، بل ستقول: "اسأل في شأنك"، تصور أن هذه القاعدة عندنا كلنا، أننا لا نسمح لأحد أن يتعدى في السؤال، فتصور أن نأتي ونحن الضعاف الفقراء العاجزون محدودو العقل، ونأتي نسأل عن أفعال الله وعقولنا لا نستطيع أن تحتل هذا الأسئلة، هذه أحد النماذج الممنوعة وسنتكلم في الباب التالي بالتفصيل، عن المسموح والممنوع من الأسئلة، مثلاً نقول: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ»^(١). على قدر عقول الخلق سيقولون إن الثلث الأخير يتنقل من أرض إلى أرض، لكن الله سبحانه ليس كمثله شيء، فعندما يخبرك النبي أن الله ينزل في الثلث الأخير من الليل، قل: "آمنت بالله وصدقت" واستفد من الخبر ولا تناقش الكيفية، لماذا؟ لأن أي عقل سوي عندما يأتيه أمر وفيه منفعة، سيفكر ويسأل عن المنفعة، وانظروا كلنا الآن نستخدم

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥).

الأجهزة الجديدة بكل أنواعها، ابتداءً بدخول الكهرباء وانتهاء بهذه الأجهزة التي نحملها، كلنا نستخدمها، فقط نسأل: كيف نرسل أو نرد أو نتواصل؟ ولا أحد يسأل كيف تصل الرسائل، وكيف يعمل الفاكس ولا كيف تسير الكهرباء في الأسلاك؟! فقط سألنا: كيف أستفيد منها؟ لكن كيفية عمله، هذا لا نسأل عنه، فمن ثمّ الله خلقنا بهذه الفطرة، أن نسأل عما ينفعنا، فعندما يسمع السامع منا أن الله ينزل في الثلث الأخير من الليل، تقول: "وما المنفعة من نزوله؟" نقول: إنه ينادي عباده يقول: «هل من مُسْتَغْفِرٍ؟ هل من تائبٍ؟ هل من سائلٍ؟ هل من داعٍ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ.»^(١) ، فهكذا ينتفع العبد، ينتفع من النص عندما يسأل عن وظيفته، وليس عندما يناقش كيفيته، لكننا ابتلينا ببلوى عظيمة من ثقافة غيرنا وليست من ثقافتنا أبداً، إن عدت لعشر سنوات مضت، تعلم أن هذا ليس من ثقافتنا، أن نسأل في كل شيء ونتفلسف في كل شيء، أضرب مثلاً: مر على الأمة في شهر الحج أن حصل حادثة التدافع في منى -نسأل الله أن يرحم الموتى ويشفي المرضى- كان المفترض عندما

(١) أخرجه مسلم (٧٥٨).

حصلت حالة التدافع أن يقوم كل شخص بوظيفته، فالمؤمنون الذين سمعوا هذا الخبر ما تموت قلوبهم تجاه المسلمين ويقولون: "الحمد لله لسنا نحن!" وفي نفس الوقت هذا بلاء نزل على الأمة، المفترض أن يقال: "إنا لله وإنا إليه راجعون"، ندعو لهم، نفعل ما يجب على المؤمن من وظيفة، لكن الناس انقسموا قسمين: قسم قالوا: "الحمد لله لسنا نحن"، وقسم صاروا يعملون في كل الوظائف التي تمر على خاطرك، من جهة التخطيط، مخططون، من جهة التحقيق، محققون، من جهة الفلسفة، متفلسفون! ثم يأتي من يقول: "هذه ليست وظيفتكم، وليس المطلوب أن تفعلوا ذلك"، فقالوا لهم: "لا بد أن نعلم الأسباب ولا نريد أن نكون مغفلين!" بل الشيطان أغفلهم عن وظيفتهم، وهذا بلاء نزل، المفترض أمامه أن يكون الإيمان بالقضاء والقدر، ثم كثير من المتكلمين لا يعرفون مني، ولم يروها من قبل! ومع ذلك يقترحون اقتراحات! فالمقصد: كل منا له وظيفته، وعندما يقوم الإنسان بوظيفته، يؤجر من ربه، وعندما يقوم بوظيفة غير وظيفته، ينقص إسلامه، والنبي -صلى الله

عليه وسلّم- يقول: «**من حُسنِ إسلامِ المرءِ تركُهُ ما لا يعنيه**»^(١) فإن

الإنسان يصل لدرجة الإحسان في الإيمان عندما يتكلم فيما يعنيه.

الشاهد: أن هذا المنهج الذي نسير فيه إلى ربنا، لا يتحمل أن تقترح، ولا

يتحمل الأحزاب ولا الفرق، ولا يتحمل أن يأتي أحد بغير ما أتى به النبي -

صلّى الله عليه وسلّم-، ولا يتحمل أن يأتي أحد بدعوات غير اتباع سنّة

النبي -صلّى الله عليه وسلّم-؛ ولذلك التحزب من أكثر الأمور التي وقعت

في الأمة وأسأت إليها، التحزب حول أفكار وحول جزء من دين الله، كل

هذا مرفوض والمقبول أن نعتصم جميعًا بسنّة رسول الله، ثم سنّة

الاتباع السنّة ليست دعوى، يعني تأتي كل الأحزاب ويقولون: "نحن نتبع

سنّة رسول الله"، نقول: "الذي يكون الكتاب والسنّة قائدًا له، لا يعظّم

غير الله ولا يعظّم غير سنّة النبي ولا يضع منهجًا ولا يسمي اسمًا غير سنّة

رسول الله، وابن عون وصف لنا الأمر قال لنا: **(ثَلَاثٌ أُحِبُّنَّ لِنَفْسِي**

وَلِإِخْوَانِي: هَذِهِ السُّنَّةُ أَنْ يَتَعَلَّمُوهَا، وَيَسْأَلُوا عَنْهَا، وَالْقُرْآنُ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ

وَيَسْأَلُوا عَنْهُ، وَيَدَعُوا النَّاسَ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ). والسلام عليكم ورحمة الله.

(١) أخرجه أحمد (١٧٣٧).

اللقاء الخامس

بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكَلُّفِ مَا لَا يَعْْنِيهِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله
صحابه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأل - سبحانه - كما جمعنا في هذا
المكان المبارك أحب أرض إلى الله، الصلاة فيها بمائة ألف صلاة، أن يقبل
منا أعمالنا، ويجعل هذا المجلس مجلسًا تحيط به الملائكة، ويذكر الله
أهله فيمن عنده، اللهم آمين.

هذا مجلسنا الخامس في دراسة **كتاب الاعتصام** من صحيح البخاري،
وهذا الكتاب له مكان عظيم من الأهمية التي دائمًا نذكر أنفسنا بها،
خصوصًا في هذه الأحوال التي تمر بها الأمة، فإن الاعتصام بالكتاب
والسنة طريق النجاة، خصوصًا وأننا نرى رياحًا تهب على قلوب المسلمين،
تُذهب بأفئدتهم وبإيمانهم، فترى من هنا ومن هنا أفكارًا حوّلت أهل
الإسلام، بل شباب الإسلام خاصة من الإيمان إلى الإلحاد، ومن الرفق إلى
الإرهاب! وهذا كله سببه: **عدم الاعتصام بالكتاب والسنة، وبقاء الناس**

ينظرون للكتاب والسنة على أنهما أحد الموارد الفكرية. يعني نفكر في حياتنا كما نتوارث من آبائنا وأجدادنا، وإن كان الموروث فيه شيء من الكتاب والسنة، فيها ونعمة، وإن لم يكن في الموروث شيء من القرآن والسنة فلا نفتش عنه.

نضرب مثلاً لنتصور هذه المسألة: تصورنا عن الجن، هذا التصور الذي ينتقل من جيل إلى جيل بناءً على أفكار الناس! والله في كتابه قد أخبر عن الجن في مواطن كثيرة، ويكفي في ذلك أنه أفرد سورة تتكلم عن الجن، هذه السورة أين هي في اعتقادنا عن الجن؟ عندما تبدأ السورة بالخبر عن سرعة إيمانهم، كانوا أسرع في الإيمان من كل البشر؛ والسبب في ذلك الاعتقاد: ما أخبرنا به الله، من أنهم أول ما سمعوا القرآن، قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾^(١). إذا هناك من الجن من هم مؤمنون، بل سارعوا في الإيمان، ثم انظر إلى ذكائهم تجدهم لاحظوا أن السماء عندما ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا، معنى ذلك أن هناك شأنًا، وعندما أرادوا التعبير عن هذا الشأن،

(١) سورة الجن: ١-٢.

قالوا: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، فلما أتى الخبر عن الرشد، قالوا: ﴿أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ﴾ وعندما أتى الخبر عن الشر، قالوا: ﴿أُرِيدَ﴾. أين هذا في اعتقادنا عن الجن؟ لا تجد هذا هو المتوارث، ولا هذا الذي نقوله! والسورة كلها تحتاج إلى تأمل وإعادة، حتى أنهم يخبرون في أثناء كلامهم أنهم ما كانوا يظنون أن أحداً من الجن أو الإنس يكذب على الله! وبعدها تعلموا الإيمان مباشرة، رأوا أن دعوة الشرك شططٌ في القول.

شاهدنا من هذا الكلام: أين هذا الاعتقاد في الجن عندنا، وعند أبنائنا الذين نعلمهم؟ الجواب: إن هذا الذي نقرؤه في كل مرة نختم فيها القرآن ونقرأ سورة الجن، وكثير منا يحفظها، إلا أن حفظها على اللسان ليس له علاقة بالاعتقاد! ثم نقول: "ما السبب الذي أوصل الشباب أن يكونوا في **جهة والدين في جهة؟! السبب: عدم الاعتصام، والاعتصام يبتدئ بالتعلم، لما أخبرنا به البخاري -رحمه الله- من أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما دعا لابن عباس، قال: (اللهم علِّمه الكتاب)، وقلنا إن البخاري أورده في كتاب الاعتصام حتى يقول: "لا يمكن أن يحصل الاعتصام إلا بالعلم"، تتعلم الكتاب، وعندما تتعلمه، تراه فقط هو الذي يهديك،**

وتزكية النفس هي غاية كل الناس، كل الناس يفكرون نفس التفكير؛ لأنه من فطرتهم السوية أنهم يريدون أن يزكوا أنفسهم، ويصبحوا في أحسن حال، ومَن خلقها أرشدنا كيف تُزكى، قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(١) أي: أحسن تقويم في بدنه، وأحسن تقويم في فطرته السوية. وأحسن تقويم تشبه قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^(٢) يعني يستطيع بفطرته السوية أن يميز بين الخير والشر، وجرب مع الصغير وستراه يميز بين الخير والشر، بين ما يُقبَل وبين ما لا يُقبَل على وجه العموم، لكن حصلت انقلابات وهذه ليست موضوعنا، موضوعنا أننا في الأصل مفطورون على فطرة سوية، وهذه الفطرة السوية تحتاج أن تُعلم ويُحافظ عليها؛ لتزكو وتنجو. ثم الخبر في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ يقسم الله -عزَّ وجلَّ- في السورة أحد عشر قسمًا على ماذا؟ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ على ماذا يقسم؟ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ إذا ينقسم الناس إلى قسمين:

(١) التين: ٤.

(٢) البلد: ١٠.

قسم يزكون أنفسهم.

وقسم لا يزكونها، ويدسونها.

كل هذا الكلام وكثير غيره، كلام عن النفس وتزكيتها وتطهيرها والعلو بها، هل تتصور أن يأمرنا الله أن نزكيا ونعلّيا ونسمو بها، ثم لا يدلنا كيف يكون ذلك؟! كيف نتصور أنه يأمرنا أن نسموا بها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾، ثم يأتي القرآن كله ولا يخبرنا كيف نزكيا؟! والتزكية بمعنى: التنمية، وكلمة **تنمية النفس** من الكلمات التي أُغتيلت في هذا الزمان، بمعنى أنهم أخذوا كلمة **تنمية النفس** ووضعوها على الفكر القادم من هنا وهنا، وهو صادر عن عُي ويدرور حول الدنيا فقط! لكن أهل الإيمان الذين يزكون أنفسهم، يريدون أن يسموا؛ ولذلك الله -عزَّ وجلَّ- ضرب مثلاً، قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾^(١) هذا هو السمو، ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ يعني تعلق الأعمال إلى السماء، أنت تشغلك مكانتك عند الله، فعندما تكون معتصماً بالكتاب والسنة، ما يشغلك هو: أن يُثني الله عليك، عندما تريد

(١) إبراهيم: ٢٤.

أن تُزكي نفسك التزكية الشرعية، الذي يشغلك: أن يمدحك الله، لكن من أراد أن ينمي نفسه على طريقة العُبي، فإن كل الذي يشغله: من هو عند الناس. ثم كل الناس يرددون مقولة: "إن رضا الناس غاية لا تُدرَك!" ما دامت غاية لا تُدرَك، فأولى بها وأحرى أن تُهمَل، لكننا جميعًا متيقنون بأن رضا رب العالمين قريبٌ من العبد، بل من تقرب إلى الله شبرًا، تقرب الله إليه ذراعًا، وهو -سبحانه وتعالى- غنيٌّ عن خلقه، ومع ذلك من لطفه ورحمته بخلقه يحب أن يتقربوا فيتقرب إليهم، بل هو وليهم يرشدهم للحق والصواب، ويردّهم عن الباطل، ويربهم العبر والمثّلات حتى لا يقعوا في الخطأ.

شاهد الكلام: أن الاعتصام **طريقٌ** للنجاة لمن أراد أن ينجو، **طريقٌ** لتزكية النفس لمن بحث عن تزكيتها، **طريقٌ** لنخرج من كل هذه الإشكالات التي نعيشها ويتعرض لها أبناءنا، فإنهم يتعرضون لموجات تؤدي إلى التشكيك في الكتاب والسنة، ثم هم يخرجون هذا الغثاء الذي في داخلهم عن طريق أسئلة التشكيك في الدين، أو عن طريق "تغريدات" تدل على أنهم ليسوا أهل يقين، هذا كله حلّه وما يخرجنا منه: أن نعتصم بالكتاب والسنة، وقد مرّ معنا في اللقاءات الأربعة الماضية بابان من هذا الكتاب،

الباب الأول: بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ".

وقد أتى البخاري -رحمه الله- بهذا الباب ليقل لك: إنك إن أردت الاعتصام بالكتاب والسنة -أي: تتمسك بقوة-، انظر للكتاب والسنة على أنها جوامع الكلم، ما معنى جوامع الكلم؟ كلمات قليلة، وراءها معانٍ غزيرة. يعني كل مرة تحتاج الأمة لأي شأن، ستجده في نفس كلام الله، يعني كلام الله لا يحتاج لا تبديل ولا تغيير، هو نفسه جوامع الكلم، فكل مرة تقلبه، يصلح أن تضعه علاجًا على مرض، مثلًا: سمعتم الإمام وهو يقرأ في صلاة المغرب آية الكرسي في الركعة الأولى وآية النور في الركعة الثانية، مثلًا نرى آية الكرسي:

- إن أردت أن توصل لأحد عظمة الله وجلاله، علّمه آية الكرسي.
- ولو أردت أن تتكلم مع أحد عن حفظه -سبحانه و تعالي- لعباده، ستقرأ أيضًا آية الكرسي؛ لأنك ستقول: الله وصفه أنه لا تأخذه سنة ولا نوم، فعندما تستحفظ نفسك عند من لا تأخذه سنة ولا نوم، ستُحفظ.
- وعندما تريد أن تكلم أحدًا عن تعلقه بغير الله، أيضًا اقرأ عليه آية الكرسي، وبين له أن الله هو العلي، الذي يستحق أن تتعلق به، وكل أحد آخر لا يستحق أن تتعلق به ولا أن تعظمه.

إذا إن أردنا أن نتكلم عن جلاله سبحانه، نقرأ آية الكرسي ونفهمها، وإن أردنا أن نتكلم عن الحفظ، نقرأ مطلعها ونصل للنتيجة، وإن أردنا أن نتكلم عن قطع التعلق بغير الله، نقرأ آية الكرسي، وإن أردنا أن نتكلم عن عظمة الله فيما يتصل بملكه وأنه -سبحانه وتعالى- عزيز، لا أحد يستطيع أن يقضي في ملكه ما لا يشاء -سبحانه-، تقرأ عن الشفاعة ونفهمها، وكيف أنه لا يمكن لأحد أن يشفع عند الله إلا بإذنه. دليل على تمام ملكه، وهكذا.

فتجد الآية الواحدة فيها جوامع الكلم، نفس الذي تقرأه، تضعه على جروح متعددة، ويبقى فيه علاج لا ينفذ.

فمن نظر إلى كتاب الله وسنة رسوله بهذه الصورة، عرف أن الآية الواحدة تُضع هنا وهنا، لكن ليس على رأينا؛ ولذلك أتى الباب التالي مباشرة، قال: **بَابُ الإِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-**.

كيف تفهم كلام الله وكلام رسوله؟ مقتدياً بمن قبلك؛ ولذلك أورد قوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

وأورد قول مجاهد هنا: **(أَيْمَّةٌ نَقْتَدِي بِمَنْ قَبْلَنَا، وَيَقْتَدِي بِنَا مَنْ بَعْدَنَا)**. يعني يأتي الناس يريدون الاعتصام بالكتاب والسنة، ويعرفون أن الكتاب

والسنة فيهما جوامع الكلم، لكن يفهموهما على ما يريدون! ثم يأتون بفكرة من الشرق والغرب ويلوون عنق الآية، لتأتي موافقة لما يريد! وفهم الكتاب والسنة ليس كما نريد، بل على ما فهمه السلف الصالح، على ما فهمه الصحابة والتابعون وتابعو التابعين، ولا تأخذ من الكتاب وفق هواك، وتستشهد به وفق هواك، بل ماذا نفع؟ (أئمة نقتدي بمن قبلنا، ويقتدي بنا من بعدنا)؛ ولذلك أورد في الباب مثلين للنبي -صلى الله عليه وسلم-:

- مثل الملائكة ضربته للنبي -صلى الله عليه وسلم-.

- ومثل النبي ضربه لنفسه.

وكلاهما يدل على نفس المسألة: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قائدٌ ويدلنا على الدار التي بناها الله، ومن يسر وراء هذا القائد، يصل، ومن يأخذ طريقًا غير طريق النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يصل.

ثم شبه النبي -صلى الله عليه وسلم- نفسه بـ (النذير العريان)، بمن ينذر القوم بقدوم جيش العدو، فمن صدقه واستعد وسار على ما أمره، نجا ومن لم يصدق ولم يستعد، هلك.

فهذا حال الناس تمامًا، إما أن يقتدوا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- في الفهم، وإما أن يتبعوا أهوائهم، فما يكون فهم الكتاب والسنة على ما يريد الله ويريد رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

إذا **المعتصمون** يجعلون كتاب الله وسنة رسوله أمام أعينهم، ولا يفهمونها كما يريدون إنما كما ورد؛ ولذلك للاعتصام شرطان:
١- العلم.

٢- فهم الكتاب والسنة على فهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلى فهم الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان.

لا أن يخرج الناس فهمًا للآيات، ويبدأ الناس يتشتتون ويجدون أنهم قد ضلّوا بسبب اتباعها لمن يستشهد بالآيات حيث يريد، على فهمه! فيُسبب للناس الزيغ. وقد أخبر الله -عزَّ وجلَّ- عن الكتاب أن فيه آيات محكمات وآيات متشابهات؛ الآيات المتشابهات من يستعملها ويفهمها كما يريد؟ الذين في قلوبهم زيغ، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١) معنى

(١) آل عمران: ٧.

ذلك أنه قد يخرج أحدهم ويقول: "قال الله، وقال رسوله" لكن على فهم يناسبه وعلى وفق هواه. وهؤلاء قد أخبر الله عنهم، وقد أخبر أنه امتحن الخلق، بأن هناك آيات متشابهات، وهذه الآيات لا نسمع تأويلها من كل من قال: "قال الله وقال رسوله"! بل نسمع من قال: "قال الله، قال رسوله" على فهم السلف؛ ولذلك لا بد أن نتحرى، وأفضل التحري في هذا الموقف، هو صدقنا وقتما نقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، حينئذ نرجو من الله أن يدفع عنا الباطل، ويقرب منا الحق، ولا يوجد مثل الاستغاثة بالله، مهما قلنا: "إن هناك علامات لأهل الهدى ولأهل الضلال"، هذا صحيح، لكن لا يوجد مثل الاستغاثة بالله وأنت صادق، فيدلك على الحق ولا يخذلك أبدًا، ويبين لك الحق كالشمس، أسأل الله - عزَّ وجلَّ- لنا وللمسلمين أن نكون من أهل اليقين وأن ينفعهم هذا اليقين وقتما يلقون ربهم، اللهم آمين!

آخر حديث في الباب الماضي كان يدلنا على أن المقتدي بالنبى -صَلَّى الله عليه وسلَّم- له صفة مهمة، وهي:

- الأدب مع النبى -صَلَّى الله عليه وسلَّم-.

- وعدم كثرة السؤال.

سنقرأ الحديث السابق:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

(دَعُونِي مَا تَرَكَتُكُمْ) أي: اتركوني ما دمت لم آمركم أو أنهاكم.

(إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ): ما الذي

يُسبب الإشكال؟ كثرة السؤال والاختلاف على الأنبياء.

(فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا

اسْتَطَعْتُمْ).

وكان هذا ختام باب الاقتداء بالكتاب والسنة، وسيعقد الآن بابًا كاملاً

من أجل أن نصل إلى هذه الحقيقة، ونرى كيف أن السؤال يأتي

بالإشكالات، وكيف عندما تأتي أسئلة في غير مكانها، تكون سببًا لفتح باب

الفتنة، والمعتصم لا يفعل ذلك، وسيأتي في أثناء النقاش أن هذا ليس

تجهيلاً للعقل، وإنما وضع للعقل في مكانه؛ لأن العقل مرشدٌ، يسترشد

العقل بالكتاب والسنة ويصل من خلالهما إلى الحق، وعندما تأتي

المواقف، هو يرشدنا ماذا نفعل. لكن لا بد أن يسبق هذا الاسترشاد

بالكتاب والسنة.

نأتي بمثال على ذلك: عندما يرد في الشرع أن الله **يختبر** تقوى الخلق، وتأتي كلمة **الامتحان**، أن التقوى **تُمتحن**، كما في سورة الحجرات، ثم تقرأ في المائدة أن الله اختبر الصحابة في تقواهم لما خرجوا محرمين، فابتلاهم بصيد تناله أيديهم ورماحهم، وتعلمون أن الصيد أبدًا ما يوصف بأنه يُنال باليد، وإنما هو صيد، يطير بمجرد الاقتراب منه، لكن من الابتلاء وهم محرمون وممنوع عليهم الصيد، أن يُبتلوا بصيد تناله أيديهم ورماحهم، ثم الله -عزَّ وجلَّ- يوقفهم وينجحون في الامتحان، العقل الآن قرأ أن التقوى تُختبر، ثم أتى نموذج أن انظر حتى الصحابة ابتلوا، ثم يأتيك في القرآن والسنة أن بني إسرائيل أيضًا أُبتلوا وأختبروا في ذلك، لما خرجوا من البحر، ووجدوا أناس يعكفون على أصنام لهم، فطلبوا أن تكون لهم آلهة، وفشلوا! ففهم العقل أن الإنسان يُبتلى، يعني يُختبر بالتقوى، وتأتيه مواقف وأحداث مثلًا، يحتاج إلى مال من أجل أن يشتري بيتًا والمال ليس موجودًا عنده، وله طريق من الحرام يستطيع منه أن يأتي بهذا المال، **فالعقل** يقول: حاجتك للبيت أتتك اختبار لتقواك، وتسهيل المال الحرام، اختبار لتقواك.

الآن العقل حلل واقعه، لكن كيف فهم العقل هذه المسألة؟! لما استرشد بالقرآن، يعني فهم القرآن وفهم أن التقوى تُختبر، ثم لما وقع في المواقف عقله استرشد بالقرآن، فأرشد صاحبه للنماء، للتزكية. إذاً العقل مهم، لكنه فارغ، يحتاج أن يتعلم ليتخذ قرارات، هو عندما يُسترشد، يُرشد، لكن عندما يكون فارغاً أو فيه خرافات الناس، فلن يرشد صاحبه؛ لذلك عندما نتناقش في السؤال فلا يمر على خاطرکم أبداً أن الشريعة تقول: "لا تسأل وابق غيباً"! لا، بل العقل مرشد، لكنه يُرشد بعد أن تعلمه، وعندما تعلمه لابد أن تكون دقيقاً وأنت تعلمه.

نبدأ الآن في قراءة الباب الثالث:

بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكْلُفِ مَا لَا يَغْنِيهِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾.

• حدثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ الْمُقْرِي، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ، عَنِ ابْنِ

شِهَابٍ، عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: "إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرِّمْ

فَحَرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ".

← يعني هل السؤال مكروه؟ المكروه كثرة السؤال، وكثرة السؤال

يضاف عليها: وَتَكَلَّفِ مَا لَا يَعْْنِيهِ.

ثم أورد قوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾^(١) يعني

نُهيْنَا ثم علل هذا النهي عن السؤال.

سنبدأ أولاً بنقاش مسألة كثرة السؤال: سنقول في الشريعة هناك

أمران:

- أسئلة منهي عنها تماماً.

- وهناك أسئلة منهي عن كثرتها.

نبدأ الآن: بالأسئلة المنهي تماماً السؤال فيها:

والسبب في النهي عن السؤال فيها: أنها لا تنفع العقل، بل تضره. بمعنى

أن كل شيء يهتك وينفعك، الشريعة أتت به. وأنت مطلوب منك أن

تسأل عما ينفعك، أما سؤالك عما لا ينفعك، فالشريعة نهتكم تماماً عن

أن تسأل فيه.

(١) المائدة: ١٠١.

سنبدأ بالأمر الأول، وأهم شيء منهى السؤال عنه وهو: كيفيات الغيبات.

أنت منهى عن السؤال فيها تمامًا والتفكير فيها، والمقصود بكيفيات الغيبات: تبدأ بالكلام حول صفات الله، وأن عقلاً يأتي فيقيس صفات الله بصفات الخلق ويقول: "كيف؟! فمثلاً وأنت في السفر تقول: «اللهم أنت الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، وَالْمَالِ»^(١).

فالله يصاحب المسافر، وهو -سبحانه وتعالى- يخلفه في أهله، والناس في حالهم من يصاحبك، لا يمكن أن يخلفك، لكن الله هو الصاحب والخليفة، فعندما تسمع مثل هذا، لا يوجد (كيف؟)، عندما تسمع مثلاً أنه ينزل في الثلث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا، ثم يأتي من يقول: "كيف والثلث الأخير يتنقل؟!" هذا ليس شأني، بل شأني أن أنتفع بما يُقال لي عن صفات الله، ولا أقيس الله بخلقه، هذا الزمان والمكان يخصك أنت ويحدك، لكن الله تعالى عن ذلك، فالمقصد: أنك عندما تأتيك مثل هذه الأخبار تلزم حدك في التفكير، ولا يحق لك أبداً أن تقول:

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٩٨).

"عقلي لا بد أن أحترمه، وأجيب عن أسئلته!" نقول: هذا شيء خارج قدرة عقلك، والأمر المهم: أن عقلك لا ينتفع بالمعرفة؛ لأنه لا يحتاجها، وهذا يعني أنك تسأل عن شيء لا تستطيع إدراكه، ودائمًا نذكر أنفسنا بهذا المثل: الآن في شؤون الدنيا مثل الأجهزة والإلكترونيات، لا أحد يسأل: "كيف تعمل هذه الأجهزة؟" يعني كيف تنتقل حروفها، والبريد الإلكتروني كيف يصلني؟! والسبب: أنه لا شيء يثيرنا لذلك، وحتى إن أتى من يعلمك ويقول: "هذه القضية بدأت حينما أتوا بالشرائح التي تحتوي على الصفر والواحد..." وبدأ يشرح المسألة، أنت تقول: لا يهمني! بل المهم عندي كيف أفتحه وأكتب وأنتفع به، وكذلك النور، نحتاج منه الإضاءة فقط، لكن كيف تسير هذه الإلكترونيات وتعمل لا يهمننا.

فالمعنى أن الإنسان في الدنيا، على صنع الخلق، عندما يشعر أن هناك شيئًا ليس في حاجة لأن يتعلمه، أو أمرًا أكبر من عقله أو أنه سيضيع عليه وقته، يتركه! فكيف عندما يأتي من يسأل عن كيفية صفات الله؟! ومثلها من يتكلم عن الغيبيات والجنة وجريان الأنهار تحت أهل الإيمان، وتجد من يسمع عن أن الجنة عرضها كعرض السماء والأرض، ثم يسأل:

"والنار؟! "نقول: ما هذا الذي تقوله؟! عندما تسمع مثل هذا، قل: "اللهم اجعلنا من أهلها!، ولا تعارض خبر ربك بعقلك!

إذًا أول وأهم مسألة ممنوع السؤال عنها: **كيفية الغيبيات**؛ لكن مطلوب منك معرفة الغيبيات نفسها وأن تعتقد فيها، مثل أن هناك صراطًا وجنة ونارًا وحسابًا في القبر لكن كيفية الغيب لا تفيدك، كيفية النزول الإلهي لا تفيدك، لكن يفيدك أن تعلم أنه ينادي خلقه، أنت تهتم بالنداء في الثلث الأخير، وتسال الله أن تكون من أهله وأن يقبلك.

الأمر الثاني: سؤال الشك فيما أخبر به الرب.

يعني الله يخبرنا أخبارًا، سواء فيما مضت أو على المستقبل، مثلًا يخبرنا عن الدجال أو يأجوج ومأجوج، يخبرنا أخبارًا غيبية فيما مضت وفي المستقبل، فالسائل يسأل سؤال الشك: "كيف يخرجون يأجوج ومأجوج للدنيا وبهذا العدد المهول ويشربون من البحيرة؟! " وكل هذا يقيس بعقله، و"أين يأجوج ومأجوج الآن والأقمار الصناعية لم تبينهم؟! " وكلام من هذا، صاحبه يوهم نفسه أنه يريد أن يعرف الحقيقة وهو في الحقيقة مشاعره الشك! فأي سؤال شك في الأخبار الغيبية ممنوع، ويأتي الشيطان يلبس على الإنسان، يجعله يظن أن نفسه التي تسأل عن ذلك

-ولاحظ أننا لا نفكر في المحسوسات هنا لكننا نفكر في الغيبيات-، إن كانت نفسك هي التي تأمرك، لأمرتك أن تفكر كيف يعمل الجوال ولرفضت استعماله إلا أن يعلموك، لكن ليس نفسك التي تأمرك بل الشيطان يأمرك بالانشغال بالغيبيات؛ ولذا الشيطان عندما يجد منك إقبالاً على العلم والقرآن، بمجرد أن يجده تركز في التدبر وتفهم الآيات، يقابلك بالتشكيك حتى يصرفك، حتى تقول لنفسك: "كنت سابقاً في حال حسنة، والأفضل أن أقرأ بدون تفكير!" لا بل بالصبر والاستعاذة ومنع النفس من العدو يكون الحل.

الأمر الثالث المنهي السؤال عنه: الحكم التشريعية في الشرائع والأحكام.

كأن السائل يقول: "لماذا نطوف سبعا؟ لماذا نرمي الجمرات سبعا؟ لماذا نصلي الفجر اثنين؟" وهكذا! يعني يأتي إلى الأحكام التشريعية ويسأل عن سبب تشريعها، والأصل أن حالتنا مع الشرع الامتثال، سمعنا وأطعنا وأول ما يأتي الإنسان ويفكر في الامتثال والاستسلام، يفكر في بني إسرائيل وحادثة البقرة، سورة البقرة فيها كل أركان الإيمان وأركان الإسلام، بل وحتى الطلاق وما يلحق ذلك، يعني سورة البقرة فيها كل

الدين، ومع ذلك سُميت بـ **سورة البقرة**؛ لورود خبر بني إسرائيل فيها مع البقرة، ما أهمية أن تأتي سورة عظيمة بهذا الاسم؛ لورود خبر عن بني إسرائيل؟ أن نفهم أن هذا الدين اسمه الإسلام، والمستسلم حاله ليس مثل حال بني إسرائيل، الذين يؤمرون فيجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق! ولا يسألوا لينتفعوا؛ ولذا في سورة غافر الله يخبر عن هؤلاء، قال تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ هذا الشيء لا يغرك؛ لأن الله يُمكنهم ثم يأخذهم ولذلك في السياق نفسه قال: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾^(١).

الشاهد: أن هذه الأسئلة ممنوعة من أصلها، إنما دين الإسلام معناه عبد يستسلم، يأتي من يقول: "أنا مستسلم لكن أقنعوني" نقول: عندما تسمع من الفاتحة إلى سورة الناس صفات الرب الكريم وكماله، وتسمع عن أفعاله وتراها، وكم في القرآن قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، ولما نسبها لنفسه لا أحد في الكون قال: "بل أنا فعلت"! يعني عندما نسب لنفسه أنه ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾، هل سمعت أحداً من البشر قال:

(١) غافر: ٥-٤.

"أنا أولجهم"؟! لا، وكل أفعاله بهذه الطريقة، يعني أنت عرفت الله وعظّمته، عن طريق الخبر عن أسمائه وصفاته وأفعاله، فماذا يكون حال الإنسان أمام العظيم بعد أن عرف عظّمته؟! يعظّمه، وعرفت إحسانه وعطاءه ومنتّه على خلقه؛ إذًا تحبه.

إذًا عقلك يُغذى بمعرفة الله، يقرأ القرآن يعرف الله، تسأل عن الله، لكن لا تسأل عن الكيفيات، "من هو ربنا؟ ماذا فعل؟ هذه أفعال من؟" لأن في فطرتنا نسال: "من الذي فعل؟ من طرق الباب؟" وعندما نرى صفات الفعل نعرف صفات الفاعل، فنقول: "إذًا الفاعل صفاته كذا وكذا"، يعني عندما نصف فرعون وقومه نقول: "حفظ الله آثارهم إلى اليوم"، هذه الآثار العظيمة من المؤكد أن من فعلها وصفهم: (عظماء)، وعندما نسال: "أين ذهب هؤلاء العظماء؟" من المؤكد العظماء طواهم العظيم؛ إذًا الله وصفه **عظيم**، والعظماء ها هم ذهبوا! وعلمت أنهم عظماء عندما رأيت أفعالهم. سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وهذه الأمواج التي تراها في البحار، ألا تشهد كلها على عظمة الله؟! بلى تشهد، فكل هذه العطايا المتتالية تسبب المحبة.

إذاً عندما تقرأ القرآن، تعرف من هو الله، فإذا عرفت عظمته وجلاله، لابد أن يكون موقفك الاستسلام، ماذا تنتظر من العظيم الحكيم؟! عندما ترى كل شيء موضوع في مكانه في الدنيا، عندما ترى كل شيء يسير بطريقة واضح فيها النظام، ونحن كلنا في فطرتنا نحب النظام، فهذا يدل على أن ربنا حكيم! فهل تتصور أن الحكيم يأمرك بأمر يخالف الحكمة؟! لا يمكن، فالاستسلام للحكم مبني على المعرفة، فعقلك قد اشتغل بمعرفة الله، أسماء الله وصفاته وأفعاله، شعر بحلمه وستره وجبره، ولطفه، فعندما يشعر بكل هذا، ثم تأتيه أوامر من وصفه العظمة والجلال والجمال والإحسان، سيكون أمامها الاستسلام. إذاً عقلك مشغول بالمعرفة، ثم يأتي عقلك فيستسلم لله، هذه وظيفة العقل.

إذاً العقل لا يُلغى، بل يُنمى ويُعطى؛ من أجل أن يحصل من ورائه الاستسلام، وانظر لحالتنا مع الناس، لما يقال لك: "هذا شخص رأيه حكيم"، ثم تجربته كثيراً، بعد ذلك عندما تستشيريه هل تناقشه أو تستسلم؟ تستسلم، تقول: "علمت أنك ما تقول إلا الحكمة" ورب الناس! كيف أراجعه في مسألة وأقول: "لماذا ربنا نهانا عن هذا أو أمرنا بهذا؟!"

المقصد أن تغذية العقل لا تكون بمناقشة نفس الأوامر، بل تكون بمعرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، خصوصًا الأفعال التي تدركها؛ لأن الله يقول دائماً: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ ولذا في سورة يونس يأمرنا الله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١) عندما تنظرون ستعرفون من هو الله؛ فتستسلموا بعقولكم، فلن يكون هناك سوء أدب مع الله، وكأنك تأتي لحكيم قد عرفت كمال علمه وتقول له: "لماذا تفعل هذا؟!" الذي في ظنك أنت أنه يخالف الحكمة، كيف تقول: "ربي حكيم" وتأتي في أذكارك وتقول: "سبحان الله" يعني أنزه الله عن النقص وتقول: "الحمد لله"، يعني أصف الله بالكمال، ثم تناقشه في أمر من أوامره! ما وقعت سبحان الله والحمد لله في مكانها؛ والسبب: أن المسبح المنزه يقول: "كل نقص بعيدٌ عنك يا ربنا، كل أفعالك حكمة وأوامرك حكمة وكل ما شرعته حكمة"، ومن يقول: "الحمد لله" يقول: "أثني عليك كملاً، وكل أفعالك كاملة"، فلا

(١) يونس: ١٠١.

يصلح أن أقول: "سبحان الله" ثم أجد غصّة في نفسي من أوامره -عزّ وجلّ-.

فالمعنى الآن: من يناقشون ويقولون: "المفترض أن نحترم عقولنا!" نقول: ما من شرع ولا دين ولا منهج في الحياة، احترم العقل كاحترام الإسلام في القرآن والسنة، جعل هذا العقل يعرف الرب بكل الدلائل وجعله يفكر ويفكر، يعني عندما تقرأ القرآن بصورة جيدة، سينطلق التفكير، ونضرب مثلاً: تقرأ قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ تسمع هذا القسم ثم تسمع: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ ومن التفكير أن تفكر ما العلاقة بين الأقسام، ولماذا يقسم بهذا وذاك؟ وعندما تفكر بالسماء ذات البروج، تعلم أنها السماء التي فيها اثنا عشر برجاً، وهذه الأبراج تنزل فيها الشمس في كل برج من السنة، ثم تعود من جديد، يعني تصبح السنة عبارة عن اثني عشر شهراً، تقابلها اثنا عشر برجاً، ثم الشمس تعود من جديد، من أن خلق الله الخليفة إلى أن تشرق من مغربها والشمس تنزل في نفس المنازل، والشمس وهي نازلة تشرق في نفس الوقت وتغرب في نفس الوقت، والناس من أجل ذلك يستطيعون أن يكتبوا لمئة سنة قادمة متى تشرق وتغرب الشمس.

الشاهد: أن كلمة ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ دلّتك على الفاعل وأنه يضع الأشياء في موضعها، يعني بعدما تفهم جيداً الآية تصل لهذه النتيجة: أن السماء ذات البروج معناها: أن الله يضع الأشياء في موضعها. وما علاقتها باليوم الموعود؟ فكر في الدنيا ستجد كل شيء في موضعه إلا الإنس والجن، الظالم يبقى ظالماً وقد يموت وهو ظالمٌ، والمظلوم يموت وهو مظلوم، هل انتهت القصة؟ لا ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ في ذلك اليوم سيكون كل واحد في مكانه، وفي ذلك الوقت هناك ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ وكل شيء حولهم في الدنيا حتى أعضائهم ستتحوّل إلى شاهد ومشهود، ليتحقق كمال العدل، وكما أن في الدنيا كل شيء في موضعه، في الآخرة كل إنسان سيكون في موضعه؛ ولذلك الله في القرآن دائماً يكرر أنه ما يجعل المسلمين كالمجرمين والمؤمنين كالفجار أبداً، وفي آخر سورة المطرفين يقول لنا: ﴿هَلْ نُؤِيبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ يعني إلا ويثوبون وكل واحد سيكون في مكانه.

المقصد: أن هذا مثالٌ على أن القرآن والسنة يجعلانك تفكر ثم تحلل المواقف ثم تنفعل معها، فهو يحترم عقلك، لكن المشكلة أننا لم نترك لأنفسنا فرصة أن يجري القرآن في قلوبنا، وأن يخالط بشاشة قلوبنا، لم

نترك لأنفسنا فرصة لأن يكون هذا الكلام القليل المليء بالمعاني، هو الذي تشم رائحته في المواقف، فكانت النتيجة: أن ظننا أن التفكير يأتي من هنا ومن هنا، وكررنا على أنفسنا سؤال: ماذا تنتظر حين يمد المسلمون الذين وُصفوا بأنهم ﴿خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ أيديهم فكريًا وعقديًا لغيرهم من أهل الكفر الذين سماهم الله ﴿شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ ، ماذا تنتظر؟! عندما يطلبون مناهج التربية من شر البرية، ماذا تنتظر؟ هل سيُخرجون خير البرية؟ لا، بل شر البرية، وعندما يمد المسلمون البصيرون أيديهم للعمي، الذين وُصفوا بالعمي! وتصور هذه الصورة، أعمى ويمسك بعكازه، وأنت تمد له يدك ليقودك! العقل لا يمكن أن يقبل ذلك! فأنت مستبصر لحقيقة النفس الإنسانية، يعني إن فهمنا آية النور:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۚ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۚ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۖ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾

لعلمنا أن الله يخبرنا أن الإنسان يملك

- الفطرة السوية التي تشبه الزيت.

- ويملك القلب الصافي الذي يشبه الزجاج.

- والله أنزل القرآن من أجل أن يأتي هذا النور.

فكل الناس خلُقوا ومعهم الزيت الصافي، الفطرة السوية، وهذه الفطرة السوية كما في الآية ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، يعني الفطرة السوية تكاد تنطق بالحق ولو لم يمسسها نار، يعني علم، والقلب هذا مثل الزجاج، وعندما تأتي الفتيلة، يشتعل نور العلم الذي أنزله الله - عزَّ وجلَّ-، المقصد: هذا أنت، فطرتك السوية وقلبك الصافي، ويأتيك العلم فتصبح مضيئاً كالسراج؛ ولذلك عندما تقرأ في تفسير هذه الآية يقال لك: "هذا مثل ضربه الله لقلب المؤمن والإيمان فيه"، هكذا قلب المؤمن مضيء، فطرة سوية وقلب صافٍ، ويأتي العلم فتكتمل هذه الصورة.

الشاهد: أن العقول هنا محترمة، والتفكير هنا وليس في مكان آخر، وكل من تكلم عن التفكير من غير هذا المنهج، إنما يتكلمون عن تفكير سطحي يتصل بالدنيا، وهنا نتكلم عن تفكير عميق يصل به الإنسان إلى حقائق الأشياء، وهذا مثلما يقال لك في الدنيا: "إن أحداً اكتشف أن هناك جبلاً من ذهب" فقط، والثاني يقول: "جبل من ذهب ونستفيد منه في كذا وتصل به إلى كذا"، فإذا انبهر الناس بإشارات من عندهم، فليعلم

أن الحقيقة العميقة هنا في القرآن، ووصف النفس بتفاصيلها هنا في كلام الله وكلام رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

انتهينا من السؤال المنهي عنه، ونأتي الآن

للسؤال المنهي عن الإكثار فيه:

الأمر الأول: ما يدور حول أسئلة الوسوسة.

يعني تكون سمعت أن حُكم كذا يكون كذا، مثلاً في الوضوء هذا الحكم أنك إذا توضأت وفسد وضوؤك تعيده، أنت في نفسك وسواس وشك فماذا تفعل؟ كلما وجدت أحداً تسأله! فهذا سؤال الوسوسة من أخطر أنواع الأسئلة المتكررة، والسبب: أن الشيطان عندما يجدهك أرضاً خصبة للوسواس، ما يتركك بل ويتنقل بك، يعني يبدأ بالوضوء وينتهي إلى الأمور العظيمة في ذات الله! إلى أن يصل بصاحبه إلى التشكيك، ومثل هذه الأسئلة لا تقل فيها: "أسأل لأستبين السبيل وأعرف الطريق!" لا، كل أسئلة الوسوسة اقطعها؛ واعلموا أن آية الملاعنة بين الرجل وزوجته إنما نزلت بعد سؤال رجل عن مسألة لم تقع، كأنه كان في نفسه وسواس وأرسل للنبي -صلى الله عليه وسلم- أنه "هل إن وجد الرجل مع زوجته رجلاً، فقتله، أتقتلونه؟" لم تكن هناك حادثة، عندما أرسل الرجل

السؤال للنبي، ردّ عليه النبي، فقال الرجل: "إن النبي -صلى الله عليه وسلم- كره كثرة المسألة" ثم وجد هذا الرجل السائل امراته مع رجل! ونزلت آية الملاعنة، فهذا أثر الوسواس أن الإنسان يوسوس ثم في النهاية إلا ويبتلى في نفسه!

فالشاهد: من أهم الأمور الممنوعة: أسئلة الوسواس التي نسميها أسئلة التنطع، يعني مثلاً يسأل عن التسبيح ويوصف له، ثم يأتي ويسأل: "بأي إصبع أعد! كيف أسبح؟" وإن بحثت في السنّة لن تجد إلا المجلد فيه، فهذا كله تنطع، سبّح وعندما يصلك النص، الله سيفتح عليك، لكن لا توسوس.

الأمر الثاني: السؤال عن أحوال الغير.

يعني مثلاً جارتك وقعت في مشكلة حصلت لها في ولادتها وتريد أن تسأل عن حكم الصلاة، فهذا مما يُكره وكان الشيخ الغديان -رحمه الله- في نور على الدرب، عندما سأله شخص عن جاره، أجاب: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعينه"، لماذا؟ لأن هذا من المؤكد أن يدخل فيه أحوال.

المسألة في أصلها ممنوعة، لكن عندما يكون هناك ظروف خاصة، فهذا شيء آخر، القاعدة عند السلف أنهم لا يجيبون عن أسئلة الشخص الذي يسأل عن غيره.

الأمر الثاني من الأسئلة المكروه السؤال عنها: السؤال عن أمر لم يقع وإنما مجرد افتراض.

مثلاً هو ذاهب للحج، فيقول: "تصور لم نصل لمزدلفة! تصور لم نجد كذا!" تعلم الصواب وعندما تحدث لك أحوال، حينئذ تسأل؛ حتى لا تشتت نفسك؛ لأنه لا بد أن تعلموا أن هناك فرقاً بين أن أتعلم السنة لأجل الحج مثلاً وإن حصل خطأ أستفتي، وبين أن أفترض أحوالاً.

الأمر الثالث: سؤال الناس عن أحوالهم التي تخصهم سؤال إخراج.

القاعدة تقول: نسأل الناس: "كيف حالكم؟" حتى يقولوا: "الحمد لله" وقد ورد في بعض الآثار أن النبي -صلى الله عليه وسلم- سأل بعض أصحابه عن حالهم، فأجاب: "الحمد لله" فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "هذا ما أردت"، وفي رواية أخرى عن عمر ابن خطاب نفس الأمر أنه سأل رجلاً: "كيف حالك" قال: "الحمد لله" فقال: "هذا ما أردت"، المعنى أننا عندما نسأل أحداً: "كيف حالك" نريد أن ينطق الحمد، قال

الحمد لله، يكفينا ولا نحتاج أن نبدأ بالتفصيل عن أحوالهم، وهذا من
الأسئلة المنهي عنها؛ لأنه إما سيكذب أو يأتي بمعارض أو يقول لك: "لا
علاقة لك!" وهذا كله من اضطرار المؤمن لسوء الأدب.
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته